إخنـاتون

د. عبد المنعم أبو بكر

الكتاب: إخناتون

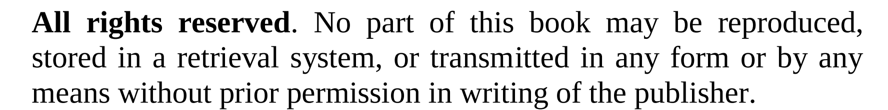
الكاتب: د. عبد المنعم أبو بكر

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com



دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

أبو بكر ، د. عبد المنعم
إخناتون / د. عبد المنعم أبو بكر
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٠١ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ٧٢٦ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٣٢١ / ٢٠١٨

إخناتون



مقدمة

في أحد أيام عام ١٣٨٢ قبل الميلاد رزق الزوجان الملكان "أمنحوتب/٣" و"تي" بولد ثان سموه أمنحوتب، وكانت ولادته بمثابة فأل حسن، وطارت الأنباء إلى أرجاء الإمبراطورية المصرية تعلن هذا الحادث، خاصة وأن ابنهما الأول واسمه "تحوتمس" كانت قد وافته منيته وهو في ريعان شبابه، بل وفي باكورة رجولته، هذا الطفل الملكي هو "أمنحوتب الرابع" الذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه، واستطاع أن يسجل على صفحاته اسمه مصحوباً بعبارات التبجيل والتقدير، هذا هو "إخناتون" أول من نادى "بالتوحيد" ولم تكن دعوته سلمية، بل اقترنت بأعمال العنف والقسوة إذ ارتطمت دعوته بعدو جبار عات هو آمون وكهنته، قبع في معبده الضخم "الكرنك" ودانت له طيبة، وسيطر على أقطار الإمبراطورية من أعالي الفرات شمالاً إلى أقاصي السودان جنوباً، هذا هو إخناتون أول من بشر الناس بإله واحد لا شريك له وقال عنه في نشيده: "أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً"، بشرهم به وأراد ألا يكون مسيطراً على المصريين وحدهم، بل جعله إلهاً للأمم جميعاً إذ ذكر في نشيده البلاد التي يوليها الإله عنايته قبل أن يذل مصر، وكان هذا الإله ليس مجسماً في صورة البشر بل كان هو الحق خالق حرارة الشمس ومغذيها.

هذا هو الرجل الذي سنترجم له في هذه العُجالة، نبدأ بسرد موجز لأحداث عصره التي مهدت لظهوره، ثم نتحدث عن حياته والبيئة التي نشأ وترعرع فيها، وفي آخر الأمر نحلل دعوته للتوحيد وتأثير هذه الديانة على مظاهر الحضارة المصرية في ذلك الحين.

العالم القديم في القرن السادس عشر قبل الميلاد

تعرَّض العالم القديم منذ القرن العشرين قبل الميلاد لهجرات متعددة قامت بها قبائل جبلية غير متمدنة تسكن المناطق الوسطى من آسيا، وتعرف في التاريخ باسم القبائل "الهندية – أوروبية"، وانحدرت من مناطقها الجبلية في أوقات متفاوتة تتجه نحو الجنوب والغرب تسعى وراء أوطان جديدة تفيض بخير أوفر مما تقدمه لهم بيئتهم الجبلية.

تحركت هذه القبائل (رجالاً ونساءً وأطفالاً) مصطحبين معهم متاعهم وحيواناتهم محملين إياها على عربات خشنة الصنع ثقيلة تجرها الخيول، واتجه البعض منهم نحو بلاد أفغانستان، ووصلوا إلى واد السند مخترقين ممر خيبر الذي كان ولا يزال المنفذ الوحيد بين أواسط آسيا الجبلية وبين هذه المنطقة، واستطاعت جحافلهم أن تتغلب على أهل البلاد وأصبحت هي القوة الحاكمة فيها، بل وقضت على الحضارة القديمة هناك، وفي نفس الوقت كانت فلول منهم (عرفها التاريخ باسم القبائل"الكاشية") قد وصلت إلى أواسط العراق، وهاجمت مدينة بابل بعد موت "حامورابي" بثماني سنوات، فقضت على الأسرة الملكية، وتولت فئة منهم الحكم في بابل لفترة من الزمن كما نزل البعض الآخر إلى المناطق الشمالية من العراق، واستقروا في وادي الفرات الأعلى، وكونت هناك دولة "الميثاني" التي امتدت حتى قاربت حدودها الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، وهؤلاء عرفهم التاريخ تحت اسم "الخوريين"،

وهناك أيضاً القبائل التي استمرت في هجرتها نحو الغرب، ووصلت إلى آسيا الصغرى واستقرت فيها، وظهرت في التاريخ باسم "الحيتيين"، ومنها أخيراً تلك الفلول التي استمرت في هجرتها البطيئة نحو الجنوب، ووصلت إلى مناطق سوريا وفلسطين، وبعد أن استقرت فيها بعض الوقت وامتزجت بأهلها، عاودت التحرك نحو مصر التي كانت تعاني التفكك والاضمحلال في عصر الأسرة الثالثة عشرة، فدخلت الدلتا حوالي عام ١٧١٠ ق.م، واستقرت فيها بل ومدت سلطانها على البلاد حتى أسيوط جنوباً وعرفهم التاريخ تحت اسم "الهكسوس".

وهكذا نستطيع أن نؤكد أن العالم القديم إبان عدة قرون من الزمان كان يغلي كالمرجل، وسادت القلاقل معظم مناطقه، وتعددت الغزوات وظهرت دول فتية جديدة حاولت أن تثبت وجودها على المسرح السياسي الدولي، ولكنها ما لبثت أن اختفت وحلت محلها قوى جديدة، ويجب علينا أن نذكر هنا أن هذه القبائل "الهندية – أوروبية" المتبربرة استطاعت أن تجتاح كل المناطق التي وصلت إليها، وأن تتغلب على كل القوى التي تصادمت معها، وذلك بفضل العربة والحصان.. حقاً لقد كان استعمالهما في أول الأمر لحمل النساء والأطفال والمتاع، ولكن ما لبث المغيرون وهم أهل حرب ونضال أن عرفوا القوة الضاربة وتأثيرها في نفوس الناس إذا ما استعملوا عربة خفيفة يجرها جوادان، وعرفوا أن مئات من هذه العربات كفيلة لسحق أكبر قوة

حربية تقف أمامهم لقد كان لاستعمال هذه الأداة الحربية الجديدة أكبر الأثر في تغيير أساليب الحرب يومئذ في الدنيا.

هاجمت جحافل الهكسوس أرض مصر في أواخر عصر الدولة الوسطى، وكانت – كما أسلفنا القول – قد أخذت للمرة الثانية تضمحل وتكبو كبوتها الطويلة تحت حكم ملوك الأسرة الثالثة عشرة، فلم يجد العدو المغير أية مقاومة عند دخوله أرض الدلتا من الشرق، وذكر التاريخ لهذا الشعب قسوة لا مثيل لها في معاملة المصريين، ولم يُعر الحضارة المصرية أي احترام، وقضى على كل المثل العليا في الدين والمعتقدات.

كان هذا الغزو سيطرة همجية، وأقام الغزاة وحدهم في معسكرات محصنة وأهملوا كل شيء في البلاد، وكان همهم فرض الضرائب الفادحة على المناطق التي أخضعوها، كان احتلال الهكسوس لمصر أول إذلال عرفته في تاريخها، وكان تكبرهم قاسياً على مشاعر المصري الذي كان يعرف تماماً أنه أرقى حضارة وأسمى مكانة.

مرت السنون وتعاقبت الأجيال والدماء تغلي في عروق المصريين ينتظرون الفرصة لطرد الغزاة، وواتتهم الفرصة على أيدي بعض الرجال الأحرار من أهل طيبة الذين هبوا لتخليص مصر من هذا الوباء والنجاة بها من قبضة المستعمر الذي أفسد عليهم الحياة، وكتب على أبنائهم الذلة والمسكنة، وهكذا رفعت أسرة عتيدة من أسرات طيبة علم الثورة، أعلنها سافرة واحدة من أعضائها البارزين، واسمه "سقنن– رع"، ما لبث أن سقط في حومة الوغى، وعثر على جثة هذا البطل، ومازالت تحتفظ

بآثار الطعنات القاتلة التي أودت بحياته، وما كاد علم القيادة ينفلت من "سقنن- رع" حتى تلقفه ابنه "كامس" ومن بعده "أحمس" الذي تهيأ له تشتيت العدو، وإجلاؤه تماماً عن أرض مصر عام ١٥٨٠ ق.م، بعد أن بقي فيها أكثر من قرن ونصف.

مصر تبني مجدها

لم تكن مهمة أحمس يسيرة هينة، بل كانت المخاطرة التي أقدم عليها قاسية على الرغم من الجهود التي بذلها من سبقوه في المعركة، فلا غرابة إذا وجدنا هذا البطل يسلك مسلكاً جديداً، ويتبع سياسة أخرى هي سياسة جمع كلمة الشعب وإذكاء روح الجندية بين صفوفه، وتكوين جبهة عسكرية لا انفصام فيها ولا تخاذل، وساعدته الظروف على تحقيق سياسته دون عناء، إذ كانت عوامل الثورة تسود مصر منذ عشرات السنين، كما استطاع أهل الصعيد منذ أيام "سقنن– رع" أن يحرزوا بعض الانتصارات، وأن يتدربوا على القتال ويتقنوا أساليبه، وأن يخبروا أدوات الحرب الجديدة التي جلبها الهكسوس معهم، فحذفوا استعمال الأقواس الضخمة ذات المرمى البعيد كما في شكل (١)، كما تدربوا على رياضة الخيل، واطمأنوا إلى ركوب عربات الحرب الخفيفة السريعة، وهكذا اندفع المصريون في تيار الجندية وتملكتهم نزعات الكفاح والنضال.

لقد كانت ثورة اجتماعية تهدف إلى تمجيد الجندية، كما عرف المصري في ذلك الوقت أن في ميدانها متسعاً لأعمال البطولة، وأن الحاكم كان يعترف بها ويكافئ عليها مهما كانت الطبقة التي ينتمي إليها البطل، فلم يسجل التاريخ القديم إقبالاً من مختلف طبقات الشعب على الانخراط في سلك الجندية بمثل ما سجله في تلك الحقبة، واستغل "أحمس" هذه الروح الجديدة بل أذكاها، فتجمعت من حوله أفواج

الشعب كلهم حماسة وإصرارًا على هدف واحد، ألا وهو تطهير مصر تطهيراً كاملاً من المستعبد المستبد، واندفع الجيش المصري يطارد عدوه الذي ولّى منه الأدبار إلى فلسطين وتحصَّن في إحدى المدن في جنوبها وهي "شاروهن" وأدرك "أحمس" أنه لن يكون لعمله قيمة عسكرية، إذا ترك العدو قوياً على مقربة من حدوده، واستطاع بعد حصار دام ثلاث سنوات أن يقتحم حصن "شاروهن" ويطرد العدو منه، ولم يتركه بل اندفع متعقباً إياه، ناشراً الفزع بين صفوفه أينما حل حتى أقصاه إلى حدود فينيقية.

لقد كان نصر "أحمس" نصراً مبيناً، فتح أمامه آفاقاً واسعة، إذ تمكن من وضع الأساس لإمبراطورية مصرية مظفرة، امتدت في عصور خلفائه فيما بين أعالي الفرات في الشمال والشلال الرابع في الجنوب.

تولى مقاليد الأمور في مصر بعد "أحمس" شخصيات فذة من أسرته، تسمى بعضهم باسم "أمنحوتب" وآخرون تسموا باسم "تحوتمس"، وقد ساهم كل منهم في توطيد أركان الإمبراطورية في كل مكان، وتتسم الفترة الأولى من عصر الأسرة الثامنة عشرة بكثرة الحروب إذ حوى العالم لقديم دولاً فنية نافست مصر وسعت إلى تحطيم قوتها، وتلك كانت دول "الميثاني" و"آشور" و"الحيثين" و"بابل"، وليس من شك في أن ملوك هذه الفترة وهم: أمنحوتب الأول، وتحوتمس الأول، وتحوتمس الثاني، وتحوتمس الثالث، وأمنحوتب الثاني، وتحوتمس الرابع قد بذلوا جهوداً جبارة وخرجوا على رأس جيوشهم مراراً وتكراراً إلى ربوع

آسيا الغربية لتثبيت أقدام هذه الإمبراطورية الواسعة الأرجاء، ويجب علينا أن نبرز هنا أن مصر لم تؤسس إمبراطوريتها هذه بعد طرد الهكسوس مباشرة، فقد كانت الحملات الحربية التي خرج بها كل من "أحمس" و"أمنحوتب الأول" و"تحوتمس الأول" و"تحوتمس الثاني" ذات هدف عسكري لا يزيد على تأديب بعض الدويلات التي أرادت مناوأة النفوذ المصري، وتأليب المناطق الخاضعة لسلطانها، ونكاد نعتقد أن فكرة احتلال آسيا الغربية لتكون إقليماً تحت السيادة المصرية لم تنبت وتنفذ على نطاق واسع إلا في عصر الملك تحوتمس الثالث أهم أعلام هذه الإمبراطورية.

لقد استحق بحق أن يسجل اسمه بين قادة العالم القديم الأفذاذ، لقد قاد الجيش المصري في السنة الأولى من حكمه وخاض غمار معركة رهيبة عند "مجدو" وانتصر فيها انتصاراً عظيماً، وأتبع هذا النصر بحملات أخرى بلغت ست عشرة حملة حقق فيها جميع أغراضه الحربية، وعبرت جيوشه نهر الفرات، ولعل من الجدير أن نذكر هنا مدى عبقرية هذا الرجل الذي سار بجيشه ليهاجم عدواً تقع بلاده على الشاطئ الشرقي لنهر الفرات، إنه زود نفسه بسفن ضخمة شيدها من خشب الأرز، وحملها على عربات تجرها الماشية، ووصل بها إلى شاطئ الفرات، واستخدمها لنقل جيشه عبر مجرى النهر، وبذلك استطاع أن يطارد ملك الميثاني داخل مملكته، حدث هذا في حملته الثامنة، وعرف هذا الرجل أيضاً أهمية القوة البحرية، فشيَّد أسطولاً ضخماً، وأنشأ مراكز

تموين في جميع موانئ الساحل الفينيقي، ويقول في نصوصه "وموّن جلالته كل ميناء وصل إليه بالخبز الجيد، وأنواع الخبز الأخرى، وبزيت الزيتون والبخور والنبيذ والعسل والفواكه".

أقام تحوتمس الثالث في آسيا الغربية حكماً عسكرياً وسياسياً، وعين مندوباً سامياً للمنطقة كلها، كما عين مفتشين مقيمين في المدن المهمة للإشراف على الأمراء المحليين، وجعل من "غزة" المركز الرئيسي للإدارة، وعرف في نفس الوقت كيف يضع الأسس القوية للمحافظة على كيان الإمبراطورية، فكان يجمع أبناء الحكام ورؤساء العشائر من كل بلد، ويرسل بهم إلى مدارس مصر لتنشئتهم تنشئة مصرية بحتة، حتى إذا تشبعوا بالثقافة المصرية وسرى في دمائهم حبهم وتقديرهم لعظمة مصر أرسلهم إلى مناطقهم ليحكوها وليكونوا في نفس الوقت رسل الثقافة المصرية، ودعاة المدنية الفرعونية، وليس من شك في أن هذه السياسة قد فتحت آفاقاً جديدة أمام المصري، فاختفت بالنسبة إليه الحدود السياسية التي كانت تمنع من اختلاط الشعوب الآسيوية بعضها ببعض من ناحية، وبمصر من ناحية أخرى، وأصبحت البلاد الممتدة من أعالي الفرات شمالاً إلى الشلال الرابع جنوباً متحدة على تباين عناصرها، ومتصلة على اختلاف لغاتها كما تركزت تجارة العالم القديم في مصر، وأصبح وادي النيل يفيض بخيرات العالم المتمدين، وكما انتشرت الحضارة المصرية في ربوع كثيرة، ولم تعد قاصرة على فلسطين والساحل الفينيقي فقط، فإن المصريين فتحوا أبوابهم للأسيويين، فدخلت البلاد

عناصر جديدة من المظاهر الحضارية، فظهرت في عصر الأسرة الثامنة عشرة أدوات موسيقية جديدة أتت من آسيا مع أنواع من الرقص الغريب، بل انتشرت في مصر بعض العادات الأسيوية، وقبل المصريون عبادة آلهة أسيوية، كما رضي ملوك مصر أن يستعملوا في اتصالاتهم السياسية اللغة البابلية، ودخلت اللغة المصرية كلمات أجنبية كثيرة، كمدلولات للأشياء الجديدة الدخيلة على مصر، وهكذا تفتحت الآفاق أمام مصر للأخذ والعطاء، ومع كل ذلك فلا نزاع في أن مصر أعطت أكثر مما أخذت، كما أن ما أخذته – على ما قلته – قد طبع بطابع مصري بحت، وتداوله الناس فيما بينهم كما لو كان من التراث المصري القديم.

مات تحوتمس الثالث وخلفه ابنه أمنحوتب الثاني الذي لم يتردد في اتباع خطوات أبيه ونفذ سياسته الحربية، وسار على نفس النمط خليفته أيضاً تحوتمس الرابع الذي نعتبره آخر ملوك الأسرة الثانية عشرة المحاربين الذين قامت الإمبراطورية على سواعدهم وهو أيضاً آخر من ذهب من ملوك هذه الأسرة إلى ربوع آسيا متقدماً جيشه ليثبت من أقدام الإمبراطورية، وبجعل هيبة مصر تحتل المكان المرموق في سوريا والعراق وآسيا الصغرى.

هكذا توافرت لمصر أسباب التقدم كلها، وتجمعت لها عناصر الثروة والغنى العريض، وكانت مركز العالم المعروف، وتدفق عليها ما تبعث به البلاد الأجنبية من خيراتها المادية والروحية، كان ملوك مصر هم حكام العالم وصار لهم من الثروة ما لا حصر له، حقاً لقد بذل ملوك

النصف الأول من هذه الأسرة مجهودات جبارة، وقد آن الأوان أن تستريح مصر، وأن تجني ثمار هذه المجهودات، لقد تبلور هذا كله في عصر خليفة "تحوتمس الرابع" أي في عصر ابنه "أمنحوتب الثالث" وأضحت طيبة عاصمة الإمبراطورية بل عاصمة العالم تتمتع بأزهى ما وصلت إليه البشرية إذ ذاك من مظاهر الرفاهية والرخاء.

مصر تجني ثمار حروبها

انحدر "أمنحوتب الثالث" من أب متوج هو "تحوتمس الرابع" ومن أم غير مصرية هي "موت–إم–أويا" بنت "أرثاثاما" الملك الميثاني، ولو أن هذه الزيجة حدثت قبل ذلك بنصف قرن لقامت الدنيا وقعدت، ولما استطاع أمنحوتب الثالث أن يرتقي العرش بأي حال من الأحوال، لقد كانت القاعدة الثابتة هي أن يلي عرش مصر أحد الأمراء من أب وأم تسري في عروقهما الدماء الملكية النقية، أما إذا كان ابناً لزوجة مصرية ثانوية، فكان من الواجب أن يلجأ إلى الزواج من أميرة من الفرع الملكي الخالص ليقوي بذلك شرعية مركزه، ويصبح أهلاً لتولي عرش الفراعنة، ومن الطريف أن نعلم أن تحوتمس الثالث كان ابناً لزوجة ثانوية، ومن أجل ذلك اضطر ليكسب نفسه شرعية الجلوس على العرش، أن يتزوج من أميرة لها الحق الكامل في الوراثة الشرعية، وبذلك أصبح ابنه "أمنحوتب الثاني" خالص الدم نقيه، أما "تحوتمس الرابع" فكان هو الآخر ابناً لزوجة ثانوية، ولكن الأمور كانت قد تغيرت في الفترة بين "تحوتمس الثالث" وحفيده "تحوتمس الرابع"، فإن الاتصال بين المصريين والشعوب الأخرى جعل للبلاط المصري يعج بشخصيات مختلفة تنتمي إلى أجناس عديدة، ولعل كثرة الأسرى الذين أحضرهم "أمنحوتب الثاني" كان السبب في هذا الانحراف الذي مس المبادئ القديمة بشأن تولي العرش، ولنضرب لذلك مثلاً: أحضر "أمنحوتب

الثاني" في العام الرابع من حكمه "مائتان وسبعون امرأة من أميرات البلاد الأجنبية.. مع حيلهن التي يدخلن بها السرور على القلب من الفضة والذهب" وفي عامه التاسع أحضر من الأسرى ما لا يقل عن تسعين ألفاً من المناطق التابعة لمصر، وليس من شك في أن تجمع هذا العدد من السيدات والمحظيات الآسيويات في الحريم المصري أمر له دلالته في مدى تأثر البلاط بتقاليد غير مصرية.

كان "أمنحوتب الثالث" كما أسلفنا القول من أم ميثانية، ولا بد أنه قد أحيط بكل مظاهر الرعاية منذ طفولته، كما تجمعت له كل الأسباب ليصبح ملكاً تخضع لأمره كل ثروات العالم، وتجبى موارده كلها تحت أقدامه، فنشأ مترفاً يعشق الحياة الرغدة ويقبل على ملذات الدنيا، ويعتبره التاريخ مثلاً يضرب لأبهة الشرق، فإن حبه للبذخ وإقباله على الانهماك في ملذات الدنيا يجعلنا نعده بحق "سلطان" مصر الفرعونية، إذا صح لنا أن نتمثل بذخ الشرق وأبهته في كلمة سلطان.

لم يكد يكتمل العام الثاني لتربع "أمنحوتب الثالث" على العرش – ولعله كان قد بلغ الربيع الثامن عشر من عمره – حتى اختار صبية لا تنحدر من أصل ملكي زوجة له، أبوها هو "يويا" كان الإله "مين"، وأمها هي "تويا" إحدى سيدات القصر المشرفة على الملابس في البلاط الفرعوني، أي لم يحمل أحد من أبويها أي لقب ذي أهمية هذه الصبية هي "تي" التي عرفت بقوة شخصيتها أن تجعل من نفسها إحدى سيدات التاريخ المصري الشهيرات إذ كان لها أثر كبير في توجيه سياسة

الإمبراطورية المصرية في عصر زوجها، كما لعبت دوراً مهماً في الأحداث التي جرت في عهد ولدها "أمنحوتب الرابع" (إخناتون)، كما كان لتوجيهاتها أثر فعال في سلامة القومية المصرية، والمحافظة عليها بعد موت ابنها.

وإذا كان "أمنحوتب الثالث" نصف "ميثاني" ولم يكترث أبدًا لنقاء دمه الملكي، فإنه كان أول ملك اختار "الزوجة الملكية العظيمة" من بين بنات الشعب المصري، لقد كان ولا شك جريئاً في تصرفه مجدداً في التقاليد المصرية، ولعله كان يرغب بذلك أن يستزيد من تحرره من القيود القديمة، والتي وإن هدفت إلى إحاطة الملك بهالة من القدسية الإلهية، إلا أنها كانت تحد من حريته الشخصية دون شك، لقد أراد أن يتزوج هذه الصبية التي لا بد وأن رآها تتردد على القصر تزور أمها فأحبها بل تدلَّه في حبها، ففعل ضارباً بتلك التقاليد عرض الحائط، والوثائق التي وصلت إلينا من هذا العصر تشهد كلها بمدى تدلُّه هذا الملك في حب أثيرته ابنة الشعب "تي"، وإمعانه في إرضائها، والتفنن في تلبية رغباتها، لقد وجد من حقها عليه أن يعلن زواجه منها على شعوب إمبراطوريته جميعاً، فحمل الرسل إليها بعدد من "الجعارين" الكبيرة نقش عليها نص يعتبر بمثابة إعلان ملكي لزواجه، ولقد استّن "أمنحوتب" عادة استعمال هذه الجعارين في تسجيل الأحداث الكبرى، وهي في فكرتها تكاد تطابق عادة النقود التي تسك وطوابع البريد التي تظهر في مناسبات معينة في عصرنا الحالي، والنص هو:

"حوريس، الثور القوي، المشرق حقاً، المحبوب من الإلهتين، المشرع للقوانين، المهدئ للقطرين، حوريس قاهر نوب، العظيم في القوة، قاهر الآسيويين، الإله الطيب، حاكم طيبة، صاحب القوة والشديد في بطشه، ملك الوجهين القبلي والبحري، "نب ماعت رع" ابن الشمس "أمنحوتب" حاكم طيبة، المحبوب من "آمون" سيد الآلهة، والمحبوب من "خنوم" رب "الكبح" (الشلال)، هو معطي الحياة، والزوجة الملكية الكبرى "تي" لها الحياة، اسم أبيها "يويا" واسم أمها "تويا" إنها زوجة ملك قوي تمتد حدود مملكته الجنوبية إلى "كاروي" والشمالية إلى نهارين".

وما من شك في أن مثل هذا الإعلان يحوي بين طياته اعترافاً قوياً بشعور الملك أنه أقدم على عمل ما كان له أن يقدم عليه، كما يحمل إصداره على ذكر اسم والد "تي" واسم أمها، الدليل على أنه أقدم على هذا الزواج وهو يعرف معناه، ولكنه لا يأبه لنتائجه وظل بعد ذلك حريصاً على أن يقرن اسم زوجته الكبرى باسمه في كل مناسبة دينية أو سياسية، وقد يشفع ذكرها بذكر أبويها أيضاً.

ولم يقف إكرام "أمنحوتب" لزوجته عند هذا الحد، بل ذهب إلى أبعد منه، فتراه خالف كل القواعد القديمة التي حرصت على عدم إظهار الزوجة الملكية بجانب زوجها في التماثيل والرسوم إلا في مناسبات معينة، وعلى أن تحتضن الملكة – بتواضع – ساق زوجها فتبدو صغيرة الحجم، كأنما هي شخص لا أهمية له، وإن حدث أن ظهرت بجانبه

فيجب تمييز صورة أو تمثال الملك بحجم كبير بالنسبة إلى الملكة، أما "تي" فأصبحت التماثيل والرسوم تصورها على قدم المساواة مع زوجها، ولعل في تمثالها الضخم المحفوظ بالمتحف المصري والذي يمثلها جالسة بجانب زوجها دون أن يتميز عنها في الحجم أصدق دليل على هذا.

كانت "تي" تتمتع بقسط وافر من الجمال لا ينم عنه تدله "أمنحوتب" في حبها فحسب، وإنما تشهد به كذلك تماثيلها الباقية التي تصورها في تقاطيع مصرية ممتلئة جاذبية على أنها كانت تجمع إلى ذلك الجمال ذكاءً ودهاءً استغلتهما في دوام حظوتها لدى زوجها، ودليل ذلك: الإعلان الملكي الذي أصدره "أمنحوتب" بمناسبة زواجه الثاني من أميرة ميثانية تدعى "جيلوخيبا" ابنة الملك "شاثورنا" واعترف فيه لها بمركزها الأثير لديه، لقد صدر هذا الإعلان منقوشاً على جعران كبير وزعه الملك على أقطار الإمبراطورية، وهو يقول فيه: "العام العاشر من حكم الملك حوريس (ويتبع ذلك ألقاب الملك) "أمنحوتب" ابن الإله رع، حاكم طيبة له الحياة وزوجته الكبرى "تي"، اسم أبيها "يويا" واسم أمها "تويا"، لقد حدث أن وفدت إلى جلالته "جيلوخيبا" ابنة الأمير الميثاني "شاتورنا" وفي صحبتها من سيدات بلاطها ٣١٧ سيدة"، وهكذا لم يفت الملك في هذه المناسبة التي عقد فيها زواجه السياسي على أميرة أجنبية، وبعد مضي ثماني سنوات على زواجه من "تي" أن ينوه باسمها وباسم أبيها وأمها أيضاً، مولياً إياها حقوقها الكاملة، ومؤكداً مركزها

المتفوق، وهي كما أسلفنا القول سليلة أسرة لا تمت إلى الدم الملكي بصلة.

ولم تكد تمضي على هذا الزواج السياسي سنة كاملة، حتى خرجت علينا "تي" بدليل آخر يشهد بمكانتها في قلب زوجها، إذ يأمر الملك المدله في حبها بحفر بركة كبيرة بالقرب من قصرها على الشاطئ الغربي للنيل، وذلك لتتنزه في قاربها الذهبي على صفحتها، وأصدر بهذه المناسبة أيضاً جعراناً كبيراً سجل عليه النص التالي:

"العام الحادي عشر، الشهر
الثالث من الفصل الأول،
اليوم الأول من حكم الملك
"أمنحوتب" له الحياة، وزوجته
الملكة الكبرى "تي" لها
الحياة. إن جلالة الملك أمر
بحفر بركة لزوجته الملكة
الكبرى "تي" في مدينتها
"زاروخع" على أن يكون
طولها ٣٧٠٠ ذراعا وعرضها
٧٠٠ ذراعا، واحتفل الملك
بافتتاح البركة في الشهر
الثالث من الفصل الأول،

وفي اليوم السادس عشر،
أبحر فوق سطحها على
الزورق الملكي "بهاء أتون".

ولا ندري تماماً أين تقع المدينة "زاروخع"، ولعلها جزء من مدينة (أو حي من أحياء) مدينة تقع إلى أقصى الجنوب من البر الغربي لمدينة الأقصر، ونكاد نجزم أن البركة السالفة الذكر هي البركة المسماة حالياً "بركة هابو"، التي لا تزال أطلال قصر أمنحوتب الثالث قائمة على شاطئها.

وحسب النص السالف الذكر تكون البركة أيضاً قد بلغ اتساعها أكثر من ١٨٠٠ مترًا في الطول وبلغ عرضها ٣٥٠ متراً، وأنها قد تمت في فترة قصيرة جداً لا تزيد على الأسبوعين، وحدث هذا كله لا لشيء سوى إعطاء فرصة لزوجته أن تتنزه على سطحها في قاربها الذهبي "بهاء آتون".

عاشت "تي" في بلاط لم يضم الضرائر فحسب، بل ملئ بالغواني الحسان اللائي استحضرهن زوجها من البلاد التابعة له في آسيا، لقد سبق أن قلنا إن البلاط الملكي كان يعج بالسيدات اللائي وفدن عليه في عصر "أمنحوتب الثاني"، ولا بد أن حضورهن من كل البلاد المجاورة لمصر استمر في عصر "تحوتمس الرابع" الذي تزوَّج من ميثانية، ونسج أمنحوتب الثالث على نفس المنوال، ولو أنه كان يتفنن في انتقاء من يفدن إلى بلاطه من العذارى الأجنبيات، ولكي نعطي صورة

لهذه الظاهرة الغريبة أكتفي بسرد ما ورد في بعض رسائل أمنحوتب الثالث التي كان يبعث بها إلى ملوك وأمراء البلاد الآسيوية في هذا الشأن، فهناك الخطاب الذي أرسله إلى أمير جازر واسمه "ميلكيلي" مع رسوله المدعو "خانيا" ويقول فيه: إنه في حاجة إلى أربعين فتاة من أجمل فتيات المدينة يتميزن بوجوه جميلة وقوام ممشوق وليس في إحداهن ما يعيب حسنها، ويستطرد الفرعون المصري بعد ذلك قائلاً: وسأتخذ من هذه الهدية مقياساً لحسن ذوقك وخبرتك!!

كما أن هناك خطاباً آخر أرسله إلى المدعو "شوباندو" أحد أمراء سوريا يطلب فيه أن يرسل عشرين عذراء، وأوفد كذلك رسولاً إلى المدعو "عبدي خيبا" أمير "أورشليم" طالباً إليه إرسال إحدى وعشرين فتاة من أبكار بلاده، وأخيراً يحدثنا التاريخ أنه أرسل أكثر من أربع مرات يلح في طلب ثلاثين عذراء من حليفه "دون شراثا" الملك الميثاني، وفي المرة الخامسة أجيب إلى طلبه زد على ذلك أن الأميرة الميثانية "جيلوخينا" حضرت ومعها ٣١٧ غادة حسناء، هذا عدا زوجاته الشرعيات وهن كما أسلفنا الذكر "تي" المصرية و"جيلوخينا" الميثانية ثم أميرة بابلية نالت جانباً كبيراً من الحظوة لديه.

مما سبق لا نكاد نشك في أن البلاط المصري كان يعج بالغواني الأجنبيات وأن صاحبه كان منغمساً حتى أذنيه في اللهو والمجون، وكانت النتيجة الحتمية لازدحام البلاط الملكي بهذه الوفرة من السرايا (وقد حضرت منهن في عصر أمنحوتب الثالث فقط ٤٢٨ غانية على

أقل تقدير) أن أخذ الدم الأجنبي يزداد امتزاجاً في عروق المصريين، وبخاصة أن سراة القوم وكبار رجالات الدولة أخذوا هم أيضاً يجارون الملك ويعملون من جانبهم على استجلاب المحظيات من بلدان آسيا القريبة، وكان لتجمع هؤلاء في البيوتات المصرية أيما أثر في انتشار كثير من العناصر الحضارية الأجنبية وتغلغلها في الحضارة المصرية.

مولد إخناتون

رزقت "تي" من زوجها "أمنحوتب الثالث" ولدين، أحدهما وهو البكر اسمه "تحوتمس" وقد مات في سن مبكرة وأبوه لا يزال على قيد الحياة متولياً العرش، وثانيهما واسمه "أمنحوتب"، وهو الرابع ممن تسموا بهذا الاسم في عصر الأسرة الثانية عشرة، وهو أيضاً الذي عرف في التاريخ باسم "إخناتون".

ولد "إخناتون" وكان قد مر على زواج "تي" من "أمنحوتب الثالث" سنون طوالاً وتربى وشب عن طوقه في بلاط صاحب كله مجون وعبث، وكان أبوه قد بدا كاهله ينوء تحت أعباء حياة الترف التي عاشها، فلم يلبث أن أنهكته الشهوات ودبت الكهولة في أعضائه في سن مبكرة، ولم تسعفه الرقى والتمائم، ولم يشفه الطب المصري الذي ذاع صيته في أرجاء العالم القديم، بل ولم تستطع الإلهة "عشتارت" التي أرسلها إليه صهره "دوشراتا" الميثاني أن تصلح ما أفسدته حياة الخلاعة التي عاشها في حريمه الصاخب، ولعل اللوحة التي عثر عليها في تل العمارنة والتي ظهر عليها "أمنحوتب الثالث" جالساً بجوار زوجته "تي" وقد بدت عليه علامات الكهولة بشكل واضح فباتت جلسته متراخية، وارتسمت على ملاحمه علامات الرخاء المنهك المكدود، إنها ولا شك صورة لرجل قد أخذ المرض يفتك بجسمه بعد أن تجرع اللذة في نهم وإسراف.

ولد إخناتون طفلاً هزيلاً ضعيفاً تراكمت عليه الأمراض ولازمته طوال حياته؛ يدل على ذلك تركيب جسمه الغريب، فوجهه كان نحيفاً إلى درجة الهزال طويلاً برزت عظامه وتدلت ذقنه واتسعت مقلتا عينيه، وارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامة خفيفة إن دلت على شيء فهي تدل على طيبة قلب وحب للسلام، وحمل رأسه الكبير عنق طويل فوق كتفين ضيقين منحدرين، وتميز جسمه ببطن كبيرة متهدلة لا تتناسب مطلقاً معه كما كانت فخذاه عريضتين، أما الساقان فكانتا رفيعتين بشكل ملحوظ، وإذا كانت هذه هي الصفات المادية لإخناتون، فقد كان ولا شك أيضاً شديد الذكاء، مرهف الحس، فيلسوفاً سديد الرأي، ذا عقل راجح ونفس صافية، يمقت الكذب وينشد الصدق في كل شيء، فقد كان يميل إلى معرفة الحقيقة في أدق مظاهرها إلى درجة أنه أبرز هذا المعنى الجليل فيما سماه المصريون "ماعث" وقصدوا بهذا التعبير "الحقيقة، الصدق، العدالة"، وكان إخناتون يؤكد أنه يعيش على "الماعث" كطعام له وأن إلهه كان قانعاً بتقديم "ماعث" كقربان له، بل جعل اسمه "العائش على الماعث" وسمى عاصمته الجديدة "مقر الماعث".

الوحدانية عند إخناتون

هذا هو "إخناتون" الذي دعا إلى عبادة "آتون" إلهاً واحداً ليس له مثيل، وصوره بهيئة قرص الشمس يرسل أشعته على الكون ممتدة بأيد بشرية فتفيض على الخلق بالجود والعافية، وهذا هو إخناتون الذي قل أن حظي ملك مصري بمثل ما حظي به هذا الرجل من اهتمام الناس، كما لم يحدث أن اختلفت الآراء بمثل ما اختلفت في حكمها على هذا الرجل، فمجَّده البعض إلى درجة أن رفعوه إلى مرتبة الأنبياء إذ اعتبروه أول من نادى بالتوحيد بين البشر، نادى به بين المصريين الذين عرفوا بشدة تعلقهم بآلهتهم المتعددة، كما حمل البعض الآخر على "إخناتون" حملات منكرة محاولاً الحط من قيمته إلى درجة أنه قيل عنه: كان هذا الرجل شاذاً في خلقه، شاذاً في عقله، منحدراً إلى الحضيض في بعض تصرفاته أما شذوذه الجسمي فلا دخل له فيه، ولا ذنب له في أنه خلق على تلك الهيئة التي لا تناسب بين أعضائها ولا انسجام، وتماثيله تدل على تركيب غريب شاهد بقدرة الله، أما شذوذه العقلي فلمخالفته لأهل عصره في عدم تشيعه لآلهة طيبة، ومقته الشديد للإله آمون، أما شذوذه الخلقي فهذا موضع غرابة، فإننا لفي شك مريب في تلك العلاقة بينه وبين أخيه "سمتكارِع" إذ كان حبه له وتعلقه به خارجاً عن نطاق العقل والمألوف.

هذا وأيم الحق كلام كله تحامل مذر على إخناتون، إذ أنه ملئ بالطعن المرير الذي يقوم على أخطاء نسبها مؤلف ضد الرجل دون وجه حق، بل نستطيع أن نؤكد أنه خلقها خلقاً، وهو في هذا يجاري بعض الكُتَّاب الأجانب الذين درجوا على التقليل من أهمية التاريخ والحط من كرامة البارزين فيه، لقد اختلفت الآراء في ديانة إخناتون، وهل كانت وليدة تنافس سياسي بين إخناتون كملك على العرش وبين سلطان كهنة آمون وثرائهم العجيب، أم كانت فتنة حتمتها ظروف الإمبراطورية المصرية التي جعلت الثروة تنحصر في فئة قليلة من الناس، فقام النزاع المرير بين العمال وبين هؤلاء الأغنياء المتملكين لثروة البلاد، أم أنها كانت ثورة قامت بين كبار الموظفين المدنيين وكبار رجال الجيش، وفي آخر الأمر يأتي من يؤكد بأن ديانة "إخناتون" لم تكن وليدة تفكيره ووحي فلسفته بل هي مأخوذة من التوراة، زعماً منهم ببداية ظهورها قبيل عصره، واستناداً إلى التشابه بين بعض فقرات أنشودة آتون وبين الفقرات من ٢٠ إلى ٣٠ من المزمور رقم ١٠٤ من العهد القديم: وقولهم هذا يفتقر إلى قوانين تاريخية، فهناك رأي سائد – وأنا من مؤيدي هذا الرأي بأن إخناتون عاش في عصر سابق لعصر ظهور المزامير، وإن مقارنة بسيطة بين نشيد إخناتون والمزمور رقم ١٠٤ لتدل على أن النشيد هو أصل المزمور:

(الفقرتان ٢٠، ٢١) "تجعله ظلمة فيصير ليلاً، فيه يدب كل حيوان.. الأشبال تزمجر لتخطف، ولتلتمس من الله طعامها".

(الفقرتان ٢٢، ٢٣) "تشرق الشمس فتجتمع، وفي مآويها تربض، الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله في المساء".

(الفقرة ٢٤) "ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعك، ملأت الأرض بغناك".

(الفقرتان ٢٥، ٢٦) "هذا البحر الكبير الواسع الأطراف، هناك دبابة بلا عدد، صغار حيوان مع كبار، هناك تجري السفن..."

(الفقرة ٢٧) "كلها إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه".

(الفقرة ٢٨) "تعطيها فتلتقط، تفتح يدك، فتشبع خيراً".

(الفقرة ٢٩) "تحجب وجهك فترتاع، تنزع أرواحها فتموت".

(الفقرة ٣٠) "ترسل روحك فتخلق، وتجدد وجه الأرض".

هذه الآيات من العهد القديم التي تقابل الفقرات الآتية من أنشودة "إخناتون" في تمجيد إلهه "آتون" وسنضع رقم الفقرة أمام النص المقابل له في الأنشودة.

(٢٠، ٢١) "إذا غربت في أفق المساء الغربي، أظلمت الأرض، وأصبحت كالجثة الهامدة، وهرع الناس إلى منازلهم ليناموا وتهدا حركتهم، ولا ترى عين عيناً أخرى (ولا يرى أحدهم الآخر) حتى أن أمتعتهم تسرق من تحت رؤوسهم دون أن يشعروا، أما الأسود فتخرج من

أدغالها، وتبدأ الثعابين اللداغة تسعى على الأرض، هذه هي مملكة الظلام إذ يخيم السكون على العالم؛ لأن خالق الأرض قد ذهب ليستريح في أفقه..."

(٢٢– ٢٣) "إذا ما أشرقت في أفقك كأتون يبدأ النهار ويعم النور الأرض، وإذا ما بزغت أشعتك اختفى الظلام، وعم الفرح أرض مصر، ويبدأ الناس بالوقوف على أقدامهم ثم يغتسلون ويبتهلون بأذرعتهم إليك وقت شروقك، ثم يخرجون سعياً وراء أرزاقهم".

(٢٤) "ما أكثر مخلوقاتك التي نجهلها، أنت الإله الواحد الذي ليس له مثيل خلقت الأرض طبقاً لما تريد، ولما كنت وحيداً في هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان، الكبير منه والصغير، وكل ما يسعى على قدميه فوق الأرض، وكل ما يحلق بجناحيه في السماء، أنت الذي أحللت كل إنسان في سوريا والنوبة ومصر في محله، وأنعمت عليه بحاجاته، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودات، وقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم، وكذلك أشكالهم وألوان أجسادهم، أجل لقد ميزت الشعوب".

(٢٥ –٢٦) "تبحر السفن مع التيار وعلى عكسه، وكل طريق عام يصبح مطروقاً، لأنك ظهرت في الأفق، أما السمك فيقفز في النهر أمامك لأن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحار".

(٢٧ -٢٨ -٢٩-٣٠) "أنت خالق النيل في السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر، ويسقي حقولهم بما تحتاج إليه، ما أعظم تدبيراتك يا سيد الأبدية فقد وهبت شعوب الجبال نيل السماء (المطر) أما النيل الذي يخرج من العالم السفلي فقد وهبت مصر إياه، إن أشعتك تغذي الأرض وعندما تشرق، تحيا وتنمو لأجلك وجعلت فصول السنة لتغذي كل ما خلقت".

هذه هي المعاني التي وردت في كل من أنشودة إخناتون، وفي الآيات السالفة الذكر من المزمور رقم ١٠٤، وهي تدل في إسهابها ولغتها البدائية ومعانيها التي أخذت تظهر في اللاهوت المصري منذ أقدم العصور على أنها أصيلة في مصريتها، وأنها كانت الأصل الذي نقلت منه إلى كتاب العهد القديم، أقول أنها أصيلة في مصريتها، بل إن هناك أكثر من معنى من معانيها ردده المصري منذ أول عصوره و"إخناتون"لم يخترع قرص الشمس الذي يمد الناس بالحياة، بل إنه وجد هذا الرأي جاهزاً بين يديه، وإننا لنعلم أن عقيدة الشمس عرفت في مصر منذ فجر تاريخها وصوَّرها المصريون على هيئة إنسان يحمل فوق رأسه تاج الملك ويتربع على عرش الدنيا ويطلقون عليه اسم "آتوم" ويعتبرونه أول الخليقة وأصل البشر جميعاً، ولقد وردت في متون الأهرام (الفقرات رقم٨٥٢ إلى ٨٥٤) أنشودة تجري كلماتها على الوجه الآتي:

"سلام لك أيها العظيم، يا ابن العظيم، إن الجنوب يسعى لإرضائك، والشمال يعمل من أجلك، إن فتحات النوافذ السماوية تتفتح

لك.. سلام لك أيها الواحد الذي قيل عنه: إنه سيعيش أبداً، لقد ظهر "حوريس".

"لقد ظهر "حوريس" ذو الخطوات الواسعة، لقد ظهر ذلك الذي يسيطر على الشرق ويسود الآلهة، سلام لك أيها الروح في إشراقك، أنت "الواحد" كما سماه أبوه، وأنت العاقل كما نعتته الآلهة..".

وإذا كانت الأنشودة السالفة الذكر ترجع إلى الأسرة الخامسة من الدولة القديمة (حوالي ٢٧٠٠ .م) فهناك أنشودة أخرى ترجع إلى مطلع الدولة الحديثة (حوالي ١٤٥٠ ق.م) هذا نصها: "الصلاة لك يا "رع" عند الشروق ويا "أتوم" عند الغروب، إنك تشرق وتشرق، وتسطع وتسطع، متوجاً كملك الآلهة، أنت يارب السماء والأرض الذي خلق الكائنات العليا والسفلى، أيها الإله "الأحد" الذي كان منذ البدء، الذي أنشأ العالم وخلق البشر، والذي أنشأ ماء السماء، وخلق النيل والذي أنشأ الماء وأحيا ما فيه، والذي أقام الجبال، وخلق الإنسان والماشية".

وأكثر من هذا فإن أناشيد الإله "آمون" نفسه وهو الذي حل "آتون" محله في عهد "إخناتون" تجري على النحو الآتي: "آمون الذي خلق كل ما هو موجود، من عينيه نشأ الإنسان، ومن فمه الآلهة الذي أنبت الأعشاب للماشية، وأشجار الفاكهة للإنسان، الذي يمنح الحياة للأسماك في الماء، وللطيور تحت السماء، الذي يمنح الهواء للفرخ في البيضة، ويحفظ نسل الدودة حياً، الذي خلق ما يعيش عليه البعوض،

والديدان وكذلك البراغيث، الذي خلق ما تحتاج إليه الفئران في جحورها، والذي يحفظ الطيور على سائر الأشجار".

ولعل من أهم الأمثلة التي تضرب لتوضيح الرأي الذي يقول بأن معظم الصفات التي أوردها إخناتون لإلهه الجديد كانت أصيلة في اللاهوت المصري، هو ما كتبه كل من الأخوين "سوتي" و"حور" على لوحتيهما، وكانا من المهندسين المعماريين الذين سكنوا طيبة في عصر الملك "أمنحوتب الثالث" والنص عبارة عن نشيد يعدد صفات الإله "آمون رع".

"إنك صانع تولى تشكيل أعضاءه – إنك خالق ولم يخلقك أحد، إنك وحيد في صفاتك، تتحرك أبدياً وتخترق طرقاً يتبعك فيها الملايين عندما تعبر السماء تتطلع إليك كل الوجوه، وإذا ما غربت اختفيت عن أنظارهم عندما تغرب في الجبل الغربي ينامون كما لو كانوا موتى...

خالق كل شيء وهو الذي يضمن لها الحياة.

إنك خالق له حنكته، وراع شجاع يعرف كيف يقود ماشيته وهو ملاذها، ومدير حياتها، إنه يشرف على ما خلقته يداه.

إنه السيد الأوحد الذي تدين له البلاد كل يوم، ويراهم وهم يسيرون إليه، يشرق في السماء مثله

مثل الشمس، وقسم الفصول إلى شهور، وهو
يخلق الحر والبرد بإذن منه، إن البلاد تهلل كل
يوم عند شروقه وما ذلك إلا تسبيحاً بحمده".

إن القارئ إذا حاول المقارنة فسوف يجد أن العناصر الأساسية الخاصة بالتوحيد وخلق الخليقة، والهيمنة على ما هو فوق الأرض، ماثلة كلها في هذه النماذج الأربعة التي ذكرتها مثلاً لما كان يردده المصري من أناشيد للآلهة في معابدها، وإننا لنعتقد أكثر من ذلك أن ديانة المصريين القدماء بما فيها من تعقيد وما تحويه من كثرة للآلهة، قد نوهت منذ أقدم العصور بإله واحد، يتجلى ذلك في كثير من أقوالهم، ومنهم الحكم والأمثال والتحذيرات التي يلقنها المعلم لتلاميذه في المدارس، ومن أمثلة ذلك أنهم يقولون:

"إن الإنسان قد خلق من طين وتبن، والإله هو بانيه"، أو "وأيم الحق إنك لا تعرف ما يجول بخاطر الإله، ولذلك فأنت تجهل ما يأتي به الغد، فألق بنفسك بين يدي الإله".

ونحن حين نجد المصري يعرّف الإله دائماً باسمه، فيقول "أتوم" أو "حوريس" أو "رع" أو "آمون" نراه هنا يذكر كلمة "الإله" دون تمييز له، أو إفصاح عن اسمه، ولذلك نود أن نعتقد بأن المصريين القدماء، وفي الأقل أولئك الذين تفقهوا في الدين، وعرفوا أسراره، قد اعتنقوا منذ عصور مبكرة ديانة "الإله الواحد" وإن كانوا لم يجهروا بها.

وإن كان الأمر كذلك فإن أنشودة آتون التي دمجها يراع "إخناتون" حوت عناصر مصر قديمة، أصيلة في الفكر والعقيدة المصرية، ولا يمكن أن تكون قد أخذت عن عقائد أخرى أجنبية كما يود البعض أن يؤكد كما أسلفنا الذكر.

آمون سيد الآلهة

لقد قلنا على الصفحات السالفة إن إخناتون كان رجلاً مريضاً منذ الصغر، وقد كان ميالاً إلى السلم ذكياً، فيلسوفاً، ومفكراً، فإذا كان الأمر كذلك فما هي الأسباب التي دفعته إلى أن يركن إلى القسوة والشدة في دعوة الناس إلى دينه الجديد؟ ولماذا جرَّد حملة عنيفة ضد آمون وكهانه؟..

سنحاول على الصفحات التالية شرح هذه النقطة شرحاً وافياً، إلا أن من الواجب علينا أن نقدم لذلك بكلمة موجزة عن العوامل الدينية التي لعبت دورها الرئيسي في هذا الشأن.

عُرف المصري القديم بكثرة آلهته وتعدد أشكالها وأنواعها، ولعل مرجع ذلك أن الدوافع التي ألجأته إلى التعبد لهذه الآلهة كانت بدورها متعددة، فهناك قوى الطبيعة الكبرى مثل الشمس والقمر والسماء والأرض، وهي مظاهر عظيمة بهرته، وتعجَّب المصري الأول من أمرها ولم تساعده بدائيته أن يتفهم كنهها، ولم يستطع إلا أن يجعل منها آلهة مختلفة، بل كانت لديه هي الآلهة الكبرى، ولكن المصري في عصوره البدائية أيضاً لم يستطع إلا أن يتساءل في حيرة عن علاقته بهذه الآلهة: هل كانت تهتم بأمره وتسعى إلى معونته إذا ما حلت به الأزمات؟ هل كانت هذه الآلهة تسرع إلى إغاثته إذا هاجمه عدو أو مرضت ماشيته؟

لقد عرف بغريزته أن هذا بعيد التحقيق، فحاول أن يجد آلهة أخرى قريبة منه تساعده وتكون سنده فتشد من أزره وتخفف من ويلاته..! ووجد في بيئته الكثير من المخلوقات التي كانت تثير دهشته وتملأه إعجاباً، كما وجد منها ما كان يرعبه ويقض مضجعه، فعبد إحدى مظاهر الطبيعة التي انتشرت في بيئته المحلية، وهكذا تكونت بجانب الآلهة الكبرى أعداد لا حصر لها من آلهة محلية، تعددت بتعدد أسباب وجودها، والمناطق التي عبدت فيها، وتعلق المصري الأول بهذه الآلهة الصغرى، وتأثرت بها حياة الأسرة سواء في القرية أو في الإقليم حتى أصبح لكل أسرة ولكل قبيلة، ولكل إقليم آلهته المتعددة.

ثم حان العصر الذي تكونت مصر فيه سياسياً فاندمجت الأسرة في الجماعة وتكونت المقاطعات، ثم اندمجت هذه المقاطعات وتكونت مصر من قسمين شاملين: هما الوجه القبلي والوجه البحري، ثم اتحد الوجهان وأصبحت مصر دولة متحدة على رأسها ملك واحد، ولقد ظهر نوع ثالث من الآلهة أسموه آلهة الدولة، وهي آلهة كانت في الأصل محلية ثم تمكن حاكم إقليمها من أن يبسط سلطانه على الأقاليم المجاورة، ويفرض في نفس الوقت إلهه على الناس ليعبدوه، وإذا قدر له أن يحكم مصر كلها فإن إلهه هذا يصبح إلهاً لكل المصريين، ومن أهم الآلهة التي كانت لها الصدارة في العبادة: "حوريس" و"رع" و"آمون".

وإذا كان "حوريس" قد كانت له الصدارة في الأسرات الأولى من التاريخ المصري فقد ظهر "رع" وهيمن على اللاهوت المصري في عصر

الأسرة الخامسة من الدولة القديمة واستمر متمتماً بأهميته وصدارته فترة طويلة من الزمن، ولم يستطع "آمون" الذي ظهر على المسرح الديني ابتداءً من الأسرة الثانية عشرة من الدولة الوسطى (٢٠٠٠ ق.م) أن يتصدر الآلهة ويصبح إلهاً للدولة إلا بعد أن ضموا إليه صفات رع وأصبح "آمون رع"، ثم ساعدته الظروف السياسية منذ عصر الأسرة الثانية عشرة ليصبح إلهاً للإمبراطورية وملكاً للآلهة، بل وأصبح ينسب إليه أنه كان يوحي إلى أبطال الإمبراطورية بالفتوحات، ويكتب للجيوش المصرية النصر، وبعونه فحسب يستطيع الملوك أن يدمروا المدن ويفتكوا بالأعداء، ولعل هذا المعنى يبدو واضحاً في الكلمات التي سجلها "تحوتمس الثالث"، القائد العسكري المغوار الذي سجل أهم انتصارات فاز بها ملك من ملوك الفراعنة، سجلها على جدران معبد الكرنك على أنه تلقاها من "آمون رع" العظيم:

"إن قلبي ينشرح بمجيئك إلى معبدي، وتمنح يداي أعضاءك الحماية والحماية".

"ما أرق الشفقة التي تظهرها نحوي! ولهذا سأثبتك في مأواي وأهبك معجزة".

"إني أمنحك القوة والنصر على كل البلاد، وإني أمهد لك المجد".

"وأبث الخوف منك في كل البلاد المنبسطة، سأجعل الرعب منك يمتد إلى عمد السماء الأربعة".

"إني أجعل احترامك عظيماً في كل الأجسام، وأجعل نداءك الحربي يتردد بين جميع الشعوب".

"إن عظماء البلاد الأجنبية في قبضتك، وإني أمد يدي بنفسي".

"وأصيدهم لك، وأربط الأسرى من البدو بعشرات الألوف".

"ومن أهل الشمال بمئات الألوف، وإني أجعل أعداء يسقطون تحت نعليك"

"إني أمنحك الأرض طولاً وعرضاً، فأهالي المغرب وأهالي المشرق تحت سلطانك".

ذلك هو حديث "آمون" إلى ابنه فرعون مصر، ومنه نستشف مدى قوة هذا الإله وعظم الفضل الذي دان به الملوك، فما كان لهم حياله إلا الوفاء له، فشيدوا لإلههم الأكبر المعابد الضخمة في كل مكان، سواء في داخل القطر أو في أرجاء الإمبراطورية الواسعة، وسواء في آسيا الغربية أو في مناطق السودان، ومنحوا هذا المعابد النصيب الأوفى من السرى والمغانم التي كانوا يعودون بها من فتوحاتهم المتعددة بآسيا، كما وقفوا عليها الضياع الممتدة، وقصارى القول إن ملوك هذه الأسرة تفننوا في إظهار ولائهم وخضوعهم لهذا الإله العظيم الذي كانت

مصر في زعمهم تدين له بوجودها وخصبها وغناها وحضارتها، ولم يكن هناك من نتيجة لذلك إلا أن يصبح كهنة هذا الإله هم المسيطرون المتحكمون في البلاد، فهم سدنته العارفون بعظمته المقربون منه، وهم أيضاً من يتوجهون إليه بالدعاء فيمنح الملك النصر فيستجيب لدعائهم أو لا يستجيب.

آمون أثار حسد الآلهة الأخرى

هكذا أخذ كهان آمون يسيطرون على كل شيء في مصر، وانصرف همهم إلى توطيد سلطانهم ومضاعفة ثرواتهم، وما كان يتفق مع أطماعهم أن يوجد في مصر إله آخر ينافسه، أو بالأحرى ينافسهم في قوتهم وجبروتهم، وقد استطاعوا أن يحققوا بغيتهم بأن أدمجوا جميع الآلهة في إلههم فأصبح "آمون" هو: "آمون–رع" و"آمون – ختوم" و"آمون – مين" وهلم جرا، وهنا أخذ الحسد يدب في نفوس كهنة هذه الآلهة ذات الصيت القديم والمجد التليد، ولم يكن من صالح هؤلاء الكُهَّان مُطلقاً أن يتناسى الناس، وعلى رأسهم الملوك، وآلهتهم ويولوا وجوههم شطر أمون وكهانه، ولا ينالهم بعد ذلك إلا الفتات، وكان على رأس أولئك المتذمرين كهنة "رع" العظيم الذي ساد البلاد من قبل وهيمنت تعاليمه على التفكير المصري القديم، وقد تنادوا بأن ديانة أمون أو قل مدرسته اللاهوتية لم تؤثر تأثيراً يذكر على الحياة المصرية العامة[1]، ولم يتهيأ بها أن تدفع حضارة البلاد نحو التقدم بمثل ما قامت

---

[1] مدينة طيبة عاصمة الإقليم الرابع من مصر العليا، لم تظهر إلا في عصر الأسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ ق.م) وبالتالي لم يظهر إلـها "آمون" إلا معها، وكلاهما ظهر عندما رجعت كفة حكام إقليم طيبة في الكفاح لذي شنوه ضد ملوك إهناسيا الذين هيمنوا على الدلتا ومصر الوسطى في عصر الأسرتين التاسعة والعاشرة، وعندما انتصر الطيبيون لم يكن من السهل عليهم تثبيت أقدامهم في الحكم دون الاعتماد على عقيدة جديدة وإله جديد يدين الجميع بالعبادة والطاعة له، ولم يكن من السهل على أصحاب الوحدة الجديدة أن يجعلوا من إلـههم المحلي "منتو" إلـها للدولة، إذ كان من الآلـهة الصغرى المحلية وكان إلـها للحرب، ودفعتهم التقاليد المصرية أن يتمثلوا بما كان يجري في منف العاصمة القديمة، وفي هليوبوليس أهم مدن الشمال طرا وصاحبة لاهوت رع، وهكذا اضطر أهل طيبة أن يستعيروا واحداً من آلهة مدينة الأشمونيين، وهي أهم مدن مصر الوسطى وصاحبة مدرسة دينية قديمة وقفت على قدم المساواة مع مدرستي كل من منف وهليوبوليس، والأشمونيون

به مدرستهم في هليوبوليس، وأخذت عوامل الثورة تتأجج في صدور الكهان من سدنة آلهة مصر الكبرى التي اضطرت إلى الانزواء في الظلام بينما سيطر آمون على كل شيء.

واستمر الحال هكذا يزداد آمون شهرة وثراء يوماً بعد يوم، بينما "رع" والآلهة الآخرون ينزوون في ظلمات الماضي، فتقل موارد معابدهم، وتزداد أسباب الفاقة والعوز بين كهانهم، ودارت الأيام دورتها ومرت السنون تباعاً حتى تولى عرش مصر "أمنحوتب الثاني" (السابع من ملوك الأسرة الثامنة عشرة).

وكان قد أنجب في عصر هذه الأسرة، مقر قيادة الجيش، وكان العرف قد جرى إبان هذه الفترة على إيفاد أمراء البيت المالك إلى هذه المدينة ليتلقوا ثقافتهم العسكرية فيها، ويأخذوا بأسباب العلم والمعرفة ويتعمقوا في شئون اللاهوت المصري في جامعة هليوبوليس القريبة منها، ويبدو أن علماء هذه الجامعة وهم في نفس الوقت كهنة "رع" صاحب الدين القديم، كانوا قد حاولوا منذ أن تداعى سلطانهم التأثير على قلوب من وفد إليهم من الأمراء، وإغراءهم بالالتفات حول راية إلههم، والدعوة

كلمة مصرية قديمة تعني "الثمانية" نسبة إلى الآلهة الثمانية التي تعتبر أصل الخليقة والتي ظهرت أول ما ظهرت فوق تل هذه المنطقة، وعندما انتقل "آمون" إلى طيبة، أعلن أصحاب الدين الجديد: "هو آمون" وهو أيضاً "تانن" (الأرض البارزة)، أي "آمون" الذي برز من "تون" (الماء الأزلي) حتى يرشد الناس إلى الصواب، والثمانية ليسوا إلا صورة أخرى، هو خالق الأبديين الذين ولدوا "رع" حتى يكتمل "كاتوم"، ولم يكتف أهل طيبة بهذا، بل أرادوا أن يقيموا الصلة بين إلههم وبين إله هيليوبوليس "رع ـ أتوم" وهو سيد آلهة هذه المدينة وسيد السماء، قالوا فيه:"يا رع" الذي يعبد في الكرنك، يا عظيم في إشراقه في منزل المسلتين، يا هيليوبوليتاني، سيد الأيام التي يشرق فيها الهلال، ملك وسيد جميع الآلهة، أيها الصقر الذي يسكن أرض النور، يا سيد البشر الذين يحرصون على إخفاء اسمك قبل أولادهم وأحفادهم، "يا آمون الخفي".

له دون "آمون"، عساهم أن يسترجعوا من وراء ذلك بعضاً من سلطتهم السياسية القديمة، ويعيدوا إلى معابدهم مجدها القديم.

وأكبر الظن أن كهان "رع" لم يأنسوا في أولئك الفتية (أولاد أمنحوتب) ما كانوا يبتغون من إقبال على ترويج دعوتهم، ولعل الحقيقة أنهم كانوا أضعف من أن يحققوا بغيتهم أمام تلك القوة الطاغية التي استأثر بها رجال "آمون" في طيبة لولا أن أحد أولئك الأمراء الخمسة، ولم يكن أكبرهم سناً، بمعنى أنه لم يكن صاحب الحق الأول في تولي العرش بعد أبيه، مال إلى الاستجابة لدعوتهم، ليس اقتناعاً بها، بل على شريطة أن يؤيدوه في ارتقاء العرش دون أخوته وبعد موت أبيه، ذلك هو "تحوتمس الرابع"، الذي تلاقت مصالحه مع أهداف كهنة هليوبوليس، وارتقى العرش مسجلاً قصة "الرؤيا" على لوحة كبيرة من الجرانيت، لا تزال قائمة في مكانها الأصلي بين ذراعي "أبي الهول" بمنطقة أهرام الجيزة، وهي إحدى القصص التي يحاول فيها الكهان تأكيد رضاء أحد الآلهة عن شخص معين واختياره إياه ليكون ملكاً على مصر، وتقص هذه اللوحة بالذات أن الأمير "تحوتمس" ابن الملك "أمنحوتب الثاني" كان قد استقل عربته حين الظهيرة، وأخذ يطارد حيوان الصحراء مع اثنين من أتباعه، ولا بد أن المطاردة بدأت من ضواحي "منف" (على بعد ٢٢ كيلو متراً إلى الجنوب من أهرامات الجيزة) واتجهت نحو الشمال، فما كاد يصل إلى الجيزة حتى كان التعب قد أنهك قواه فآوى إلى الظل بجوار

تمثال الإله "أبي الهول" فأخذته سِنة من النوم تبدى له فيه الإله يتكلم بفمه، كما يتكلم والد مع ولده قائلاً:

"ولدي تحوتمس! تأملني فأنا أبوك "حور. إم. إخت. خبري. رع. اتوم" [هذا هو اسم الإله الذي يمثله تمثال "أبي الهول" ويعني "حوريس في الأفق، الذي خُلق من نفسه، هو رع أتوم"] إني واهبك ملكي على الأرض لتكون سيداً على الأحياء، ولسوف تتوج بالتاجين الأبيض والأحمر على عرش "جب"، وستكون لك خيرات القطرين وجزى البلاد جميعاً.. إني موليك وجهي فكن حفيظاً على شئوني، ولقد دب الإعياء في أعضائي جميعاً، إن رمال الأرض التي أعتليها قد غمرتني، فاتجه إلي لتنفذ رغبتي، إني لأعلم أنك ولدي والمدافع عني فتقدم، وإني معك ومرشدك".

كان معنى هذا الحديث الذي كتب على لسان الإله أنه قد اصطفى "تحوتمس" ليتولى عرش مصر من دون إخوته الخمسة، على الرغم من أنه لم يكن أحقهم به، والواضح أن كهنة "رع" كانوا من وراء قصة الرؤيا، وأنهم قد نجحوا في تحويل ذلك الأمير من عقيدة آمون إلى عقيدة الشمس بعد أن أشعروه بمدى مناصرتهم له إذا هو انحاز إليهم وعاونهم على التقليل من شأن إله طيبة، ونجحت المحاولة، وتربع "تحوتمس الرابع" على عرش البلاد، وأخذ يشيد بمناقب "رع" متغاضياً عن "آمون"، ولعل أقدم البشارات بقرب ظهور مذهب جديد، أو تصور جديد عن إله الشمس ترجع إلى عهد هذا الملك، ومن هذه التباشير

تصوير قرص الشمس تمتد منه ذراعان تنتهيان بيدين بشريتين تحيطان بالملك وتحميانه وتغدقان عليه النعم وهو ذات التصوير الذي اختاره "إخناتون" فيما بعد لإلهه "أتون" مع تحوير يلائم عقيدته، بل عثر على اسم "أتون" نفسه مذكوراً على جعل سجل عليه نفس الملك تمجيداً لذاته، وإشادة ببأسه وقوته وجهاده في سبيل إخضاع الشعوب، وجعلهم من رعايا "أتون".

مولد دين جديد

لا شك إذن في أن شرر الثورة الدينية كان قد بدأ يتطاير منذ أيام "تحوتمس الرابع" ووجد مناصرة قوية في عهد ابنه "أمنحوتب الثالث" فقد ذكرنا فيما سبق أن هذا الملك أطلق اسم "بهاء أتون" على الزورق الملكي الذي أهداه لزوجته "تي"، كما عاش في عصر "أمنحوتب الثالث" رجل اسمه "رع – مس" جمع بين وظيفتين إحداهما "كاهن أمون" والثانية "مدير البيت في معبد أتون"، بل أكثر من هذا ما ورد في أحد النصوص من عصر هذا الملك، أن "بن – بوي" وكان عمل كاتباً لخزانة معبد "أتون" كان يطلب من فرعون أن يتوسط عند الإله "آمون – رع" ليمده بالقرابين الجنازية كل هذا يدل على أن "أتون" كان معترفاً به في عصر "أمنحوتب الثالث" وأنه كان له معبد في طيبة قبل ثورة العمارنة، بل وأن الإلهين "آمون" و"آتون" كانا على صلات ودية، مثلهما في ذلك مثل "آمون" مع بقية الآلهة في مصر، ولعل من القرائن التي تدل أيضاً على مناصرة "أمنحوتب الثالث" لدين "رع" أنه قلد ابنه البكر "تحوتمس" منصب كبير كهان "بتاح" رب منف وسمح له يبذل الجهود الكبيرة لإحياء العاصمة القديمة وبعث عقائدها الدينية ونشرها بين الناس من جديد، غير أن هذا الأمير لم يعمِّر طويلاً، ومات في سن مبكرة، فدفنه أبوه في جبانة سقارة.

هذه هي الأحداث التي سبقت عصر "إخناتون"، بل هذا هو الوسط الذي شبَّ فيه عن طوقه، وهو وسط كما أسلفنا القول، كله يمجد "رع" ويشيد بتعاليمه، ويود لو استطاع الاستمرار في السياسة الدينية التي رسمها "تحوتمس الرابع"، والتي حاول من بعده ابنه "أمنحوتب الثالث" أن يتبع خطاه فيها ويسير على نهجها، لولا أنه كان رجلاً لا يعنيه إلا التمتع بترف الحياة، والأخذ من نعم الدنيا بأوفر نصيب، فاضطر أن يهادن كلاً من الطرفين، ثم رأى أن مصلحته تحتم عليه أن يميل إلى الطرف الأقوى ينشد مساعدته، ويطلب منه تثبيت أقدامه في الحكم، فنحيز إلى كهنة "أمون" خاصة وأنه شعر بمحاولتهم استغلال انتسابه إلى أم أجنبية، هي "موت – إم – ويا" ابنة الملك الميثاني، بل لعلهم لوحوا له بإقامة العراقيل أمامه إن لم يجهر بمناصرتهم، فاستجاب على الفور، وأجزل لهم العطاء، وشيد معبداً ضخماً لآمون في مدينة طيبة، فردوا على هذا الجميل بأن أعلنوا على الشعب أنه "ابن آمون" ومن صلب الإله نفسه، وسجل "أمنحوتب الثالث" هذه القصة على جدران معبده السالف الذكر.

يبدو أن "أمنحوتب الرابع" نشأ في "أرمنت" القريبة من طيبة (وهي التي عرفت باسم هليوبوليس مصر العليا) وقام على تعليمه فيها كهنة من أتباع مدرسة لاهوت هليوبوليس وتعمق في دين "رع"، ونحن لا نعرف إذا كان سنه الصغير قد سمح بإيفاده إلى "منف" لتكميل تعليمه والقيام بالتدريبات العسكرية طبقاً للتقاليد الرسمية المتبعة في البلاط

المصري منذ أول الأسرة الثامنة عشرة أم لا، وأقول سنه الصغير لأننا نعلم أنه حكم ست سنوات بالاشتراك مع والده، وما يقرب من ثلاثة عشر عاماً بمفرده، وهناك من يجزم بأنه مات غير متجاوز الثلاثين من عمره[1]، ومعنى هذا أنه أخذ يتحمل أعباء الحكم وهو في سن لا تزيد عن الإثنى عشرة سنة، والسؤال الآن: هل لصبي في مثل هذا السن المبكر أن يتحمل أعباء ثورة عاتية، يقف فيها بمفرده أمام أكبر قوة عرفتها مصر وهي قوة كهان آمون؟ ليس من شك في أن "إخناتون" لم يقف بمفرده في ميدان المعركة وبخاصة في السنين الأولى من حكمه، ونحن نحس بأصابع أمه "تي" تتولى توجيهه نحو الطريق الذي اختارته له، ولينفذ لها تلك السياسة التي تهدف إلى إيجاد موازنة بين سلطان الملك وقوة وجبروت كهان "آمون" النهمين الذين لا يقنعون بشيء ولا يفتأون يطالبون بالمزيد، خاصة وأن الملك الذي اختارته الظروف لهم كان مريضاً ضعيفاً، اعتقدوا أنه لن يستطيع الثبات أمام مطالبهم التي لا نهاية لها، وكانت "تي" سيدة ذكية صقلتها الأحداث، استطاعت بدهائها أن تظل حتى آخر أيام حكم زوجها صاحبة اليد العليا، ليس في مصر فحسب، بل في توجيه سياسة الإمبراطورية كلها، حتى بات ذلك الأمر معروفاً عند الأمراء والحاكمين في أقاليم الشرق، فكانوا يقدرونها ويبعثون إليها برسائل الود، ولقد وصل إلينا من وثائق عصرها ما يبرز بوضوح مبلغ

---

[1] من المعروف أن مدة حكمه لا تزيد عن تسعة عشرة عاماً، ولم نعثر حتى الآن على جثته؛ لأننا نعتقد أنه لم يدفن في المقبرة التي نقرها لأفراد أسرته في التلال الحجرية إلى الشرق من مدينة تل العمارنة، إلا أن تماثيله تدل على أنه كان رجلاً ضعيفاً مريضاً لا يمكن أن يكون قد عاش طويلاً، كما ترجح أن موته حدث نتيجة لمؤامرة دبرت للقضاء عليه، ولذلك لا يمكن أن يكون قد عاش أكثر من ثلاثين عاماً.

نجاحها في هذه الناحية[1]! لم تكن "تي" ترغب في القضاء على "آمون"، كما أنها لم تفكر مطلقاً في إبراز عقيدة "رع" في إطار يخالف ما عرفه المصريون عن هذا الإله منذ أقدم العصور.

لقد بدأ الملك بأن تسمَّى باسم تقليدي يحوي اسم "آمون" وهو "أمنحوتب"، إلا أن اسم العرش الذي اختاره لنفسه كان يحوي ما يدل على ارتباط كبير بعقيدة الشمس، وإن كان اسم الشمس هو "رع" أي الاسم القديم، واسم العرش هو "نفر خبرو رع – وع إن رع"، ولم يكد الملك الصبي يجلس على العرش حتى نراه يطالب بتقديم مظاهر التقديس على نطاق أوسع لرع إله هليوبوليس واحتفظ بهيئة الإله كآدمي ذي رأس الصقر يعلوه قرص الشمس، إلا أن اسم "آتون" أخذ يظهر ليس كعنصر جديد أوجده الملك، بل على أساس أنه الاسم الذي أطلق على قرص الشمس منذ عصر الدولة القديمة، إذ كان هذا هو الاسم الفلكي للشمس كجرم في السماء دون أن يرتبط بأية صفة من صفات الآلهة، ومن الواضح أن هدف الملك كان يتجه نحو البدء في محور الصورة القديمة للإله رع، وتخليص إلهه منها وتغليب المظهر الروحي له.

---

(١) وصلت إلينا وثيقة مهمة، عبارة عن خطاب أرسله ملك الميثاني إلى الملكة "تي" بعد وفاة زوجها "أمنحوتب الثالث" يقول فيه: تعرفين عني كيف كنت صديقاً وفياً لزوجك، وكيف كان هو صديقاً وفياً لي، وتعرفين ما كنت أكتبه لزوجك، وما كنت أتحدث به إليه، وتعرفين أيضاً الكلمات التي كتبها زوجك لي، فأنت فقط وسفرائي يعرفون هذا، بل أنت تعرفين أكثر مما كان يعرفه سفرائي، ثم في نهاية الخطاب نراه يطلب إليها أن تعمل على المحافظة على علاقات المودة التقليدية بين البلدين وتدفع الملك الجديد أن يأخذ بها، بل طلب إليها أن تزيد هذه العلاقات ارتباطاً بمقدار عشر مرات، على أن تثبت حسن نيتها بإرسال مقادير من الذهب تزيد عما كان يصله من قبل.

وهكذا نكاد نحس تماماً أن الاتجاه في عصر الفترة الأولى من حكم "إخناتون" كان ينحصر في الاعتراف بالإله "رع" بجانب "آمون" على أساس الصورة الجديدة له تحت اسم "آتون" وأن يدخل هذا الإله، حاله في ذلك حال كثير من الآلهة، في معبد الكرنك ويعبد فيه بجانب "آمون"، ورضي كهنة "آمون" وسمحوا للملك أن يبني معبداً كبيراً لأتون في حرم الكرنك، ولعلهم وجدوا في إصرار الملك وصدق عزيمة أمه "تي" على تنفيذ هذه السياسة ما جعلهم يحنون رؤوسهم قليلاً، مفسرين تراجعهم على أساس أن إلههم الأكبر في الواقع هو "أمون – رع" الممثل لرع الهيليوبوليتاني، كما أدركوا أيضاً أن مذهبهم راسخ في قلوب الناس وبخاصة أهل الصعيد، كما أن إلههم قد ذاع أمره في كل مكان داخل مصر وخارجها، وأن الناس أجمعين يؤمنون بأن لا قوة غير قوة آمون، ولا عز ولا انتصار إلا حول ساحته وعند أقدام عرشه، وهكذا ولأول مرة سمح لـ "آتون" أن يأخذ مكانه رسمياً بين الآلهة المصرية وأن يعترف به من أصحاب "آمون".

ومن الواضح أيضاً أن "إخناتون" أراد في أول الأمر مهادنة كهنة آمون معللاً النفس باكتساب بعضهم لاعتناق دينه الجديد إذ أنه حتى ذلك الوقت كان يحمل الألقاب التقليدية المتوارثة منذ أقدم العصور وهي: "الفحل القوي، المحبوب من الإلهين، الصقر الذهبي، صاحب التيجان الملكية، ملك الشمال والجنوب، ابن الشمس، أمنحوتب، الحاكم المقدس بطيبة، الأبدي، المحبوب من أمون – رع"، ولكن هذا

كله لم يجعل العلاقات تتحسن بين الملك وكهَّان طيبة، بل إن الأحداث تدل على أن هذه العلاقات أخذت تسوء منذ إعلان إخناتون لبعض صفات إلهه الجديد: ["رع- حور- آختي" الذي يهنأ في أفقه تحت اسمه الجديد "الحرارة الكامنة في آتون"]، ونعتقد أن إعلان هذه الصفات كان له وقع الصاعقة في آذان كهَّان "آمون"، إذ تبينوا فيها اتجاهاً لم يعهدوه من قبل، ولا بد أنهم تساءلوا عن معنى "الحرارة الكامنة في آتون"، بينما كان "رع" ولا يزال بالنسبة للجميع هو "قرص الشمس" بذاته، وتأكدت ظنونهم عندما أعلن الملك الشاب في حديث بينه وبين وزيره الأول المدعو "رع – مس" ميوله نحو إلهه الجديد، سجل الوزير هذا الحديث في مقبرته المشهورة رقم ٥٥ بجبانة طيبة حيث نرى صورة يبدو فيها "إخناتون" واقفاً ومن فوقه رسسم الإله "رع – حور – آختي" وبجانبه النص الآتي: "كلمات رع ألقيها عليك: إن الإله علَّمني إياها، وكشف لي عن خباياها، وهذه الكلمات عرفها قلبي، وانشرح لها صدري"، فأجابه الوزير: "إنك الوحيد الذي اختاره "أتون" لكي يلقي إليه بتعاليمه، والخوف منك يملأ قلوب الناس، والجبال تستمع إليك كما يستمع الناس".

هذا النص الوجيز إن دل على شيء فإنما يدل على أن الملك كان يفكر في أشياء، وأن بعض كبار القوم في مصر كانوا يعرفون ما يجول في فكره، ولا بد من أن كهنة آمون كانوا قد أحسوا بأن هناك مؤامرة تحاك ضدهم، وأن الأحداث تجري سراعاً، ومما زاد الطين بلة أن

التيارات الجديدة التي أقلقت مضاجع كهان أمون، كان يصحبها تجديدات فنية قلبت الأسلوب الفني القديم وقواعده رأساً على عقب بل هدمته وأودت به، لقد طلب الملك من الفنانين أن يتوخوا الأسلوب "التعبيري" في فنهم، وأن يتجنبوا المبالغة في إبراز صور الأفراد في ذلك الإطار المثالي الذي يمثلهم كما يود الفرد أن يكون عليه وليس كما هو في حقيقته، وانصب هذا التوجيه الجديد على الملك نفسه، فالرسوم الموجودة على أحجار ذلك المعبد الذي شيده الملك لـ "أتون" في الكرنك موسومة بذلك السلوب "التعبير" الذي يميز حكمه، والذي يظهر جسمه مشوهاً بل إن التماثيل الضخمة التي عثر عليها في معبد الكرنك توضح لنا بوجوهها النحيلة وأفخاذها المتكورة أن فن العمارنة كان منفذاً منذ أول أيام حكم إخناتون أي قبل أن يبدأ النزاع رسمياً بينه وبين أمون وكهانه.

حدث هذا كله في أوائل عهد "إخناتون" بالحكم وقبل أن يعلن ثورته، إلا أن إفصاحه عن صفات "أتون" وإصراره على اتباع قواعد الفن "التعبيري" كان ولا شك بمثابة الصفعة على وجه مصري ذلك العصر، وتحريض سافر على نشوب المعركة، ونكاد نعتقد أن الجو بدأ ينذر بالخطر الداهم في عامه السادس، وذلك حين أعلن على الناس وصفاً آخر لإلهه "آتون": "فليعش رع صاحب الأفقين الذي يرسل أشعته من جيله إنه والدي وقد عاد إلينا باسمه الجديد "أتون"".

وحين أخذ يمثل هذا الإله بقرص الشمس تمتد منه عشرات الخطوط التي تمثل كل منها الأشعة تنتهي بيد بشرية تقبض على علامتي الحياة والسعادة، وهكذا عرف كهان "آمون" أن الإله الجديدة يختلف تماماً عن آلهة المصريين وأنه هو "القوة الكامنة في قرص الشمس والحرارة التي تشع منه" وليس كإلههم ممثلاً في صورة بشرية أو حيوان مقدس.

وحين وصلت العلاقات بين الملك وكهان آمون إلى هذا الحد من السوء وأخذ الجو في الكرنك يتلبد بالغيوم، أفصح الكهنة عن ثورتهم وأخذوا يحيكون المؤامرات للقضاء على إخناتون، نعرف ذلك من وثيقتين، أولاهما: عبارة عن حديث للملك نقشه على إحدى اللوحات التي كانت تحدد منطقة مدينته الجديدة "أخيتاتون" (تل العمارنة الحالية) ويذكر لنا الطريقة التي قابل كهان "آمون" أولئك الذين يعلمون الناس الصدق، وينشرون تعاليمه الجديدة ثم يستطرد فيقول: "أقسم بحياة والدي "آتون" أن الكهنة كانوا أشد إثماً من كل الأشياء التي سمعتها حتى العام الرابع، بل أشد ضرراً من كل الأشياء التي وقعت حتى العام السادس.

أما الوثيقة الثانية فهي: عبارة عن تسجيلات وردت مرسومة على جدران مقبرة رئيس الشرطة المدعو "ماحو"، وتحوي تفصيلات عن مؤامرة دبرها ثلاثة، أحدهم مصري، أما الاثنان الآخران فكانا من الأجانب وبدت شعورهما مسترسلة وقصرت لحيتهما، ولا شك أن هدف

هذه المؤامرة كان القضاء على الملك، إذ نرى الوزير بع القبض على المجرمين يتوجه بالشكر لـ "آتون" الذي وفقهم في الكشف عن هذه المؤامرة قبل تنفيذها.

إخناتون يهجر طيبة

وليس من شك أن الهوة التي كانت بين الملك الشاب وكهان "آمون" بلغت في العام السادس من حكم الملك منفرداً حداً جعل الأخطار تحف به، بل تعرضت حياته لمؤامرات هدفها القضاء عليه، وليس من شك أيضاً أن كهان "آمون" اعتقدوا أن الملك المريض الهزيل سوف يمتثل لهم ويتراجع عن غيه، وسوف تكون الغلبة لآمون في آخر الأمر، ولكن الملك كان في إصراره أقوى مما اعتقدوا، فلم يلبث أن أعلنها حرباً لا هوادة فيها ضد آمون، إذ أمر بتجريد حملة من العمال والصنَّاع، تعاونهم فرق كبيرة من الجيش لبدء حركة إرهاب عنيفة هدفها محو "آمون" ليس من طيبة فقط بل من كل أرجاء الإمبراطورية المصرية، والقضاء على كهنته، ولم يلبث أن أتبع ذلك بتغيير اسمه من "أمنحوتب" (آمون راضي) إلى "إخناتون" (المفيد لآتون)، وأصبح بذلك أمر إنكار الإله القديم والإيمان بالإله الجديد شيئاً رسمياً، واستحال على الملك البقاء في طيبة وقرر تشييد عاصمة جديدة اختار لها مكاناً يتوسط تماماً المسافة بين منف العاصمة القديمة في الشمال، وطيبة في الجنوب، وهما العاصمتان اللتان تبادلتا الحكم في التاريخ المصري هذه هي "أخيتاتون" (أفق آتون)، وأخذ الملك ينفذ هذا المشروع الكبير في عامه السادس أيضاً، وترك لنا نصاً مسجلاً فيه طريقة اختياره لمكان عاصمته

الجديدة وأنه هاجر إليها بمحض إرادته وأنه تلقى الوحي لذلك من إلهه وليس لأحد فضل ما في اتخاذه لهذه الخطوة.

"وقف الملك أمام "حور أتون" وأضاء عليه آتون بالحياة والعمر الطويل، وقال جلالته"

"آتوني بأصدقاء الملك والعظماء وضباط الجند من كل مكان، وقد أُتيَّ بهم في الحال".

"وقبَّلوا الأرض أمامه خضوعاً لإرادته، وقال لهم، انظروا "أخيتاتون" هذه هي التي يريدها".

"أتون" لأجعل منها أثراً باسم جلالتي أبدياً، إن "آتون" والدي هو الذي قادني إلى هذا".

"المكان لأقيم له فيه "إخناتون" ولم يقدني إليها شريف أو أحد آخر..".

ثم نرى الملك بعد هذا الحديث يستطرد معدداً الأبنية المختلفة التي يزمع إقامتها في هذه المدينة مبتدئاً بالمعابد، ثم القصور الخاصة به وبزوجته وأمه وأولاده، ثم بمنازل الخاصة، وأقسم الملك ألا يترك المدينة ولا يتعدى حدودها الشمالية أو الجنوبية مدى حياته..

تميَّز الموقع الذي اختير لتشييد العاصمة الجديدة "آخيتاتون" (وهي التي نطلق عليها حالياً اسم "تل العمارنة") باتساع رقعته اتساعاً كبيراً، كما أن الأبنية امتدت امتداداً وصل من الشمال إلى الجنوب مسافة أحد عشر كيلو متراً، وما يقرب من الكيلو ونصف من الشرق إلى

الغرب، وأقام الملك عدداً من اللوحات الحجرية حدد بها حدود هذه المدينة والأراضي التابعة لها على جانبي النيل، ولا يزال بعض هذه اللوحات قائماً في مكانه حتى عصرنا هذا، لقد كانت هذه المدينة غير محصنة إذ منع اتساع رقعتها من إقامة سور حولها، وقام تخطيطها على الإكثار من الحدائق وزرع الأشجار على جوانب طرقها.

كان معبد آتون العظيم يتوسط المدينة، وكان مفتوحاً للسماء، تلج أشعة الشمس إلى جميع جنباته، ويستطيع الناس التعبد لآتون (الحرارة الكامنة في قرص الشمس) في كل مكان فيه وبذلك يختلف هذا المعبد تماماً عن المعابد القديمة التي كان يخيم على أجزائها الظلام الدامس وتحاط بالأسرار، واتصل القصر الملكي بمعبد آتون، وتناثرت قصور النبلاء والأشراف ومنازل الأتباع والخدم إلى الشمال والجنوب من القصر الملكي، ومن الغريب أن تخطيط المدينة لم يقسمها إلى قسمين أحدهما لقصور العظماء والآخر لمنازل الأتباع، بل اختلطت المنازل الصغيرة مع القصور الشامخة، وكان المنزل الصغير المعد لسكن أسر الطبقة الدنيا من الناس يتكون من غرفة رئيسية سقفها محمول على عمود واحد، وتتفرع منها غرفتان خلفيتان، وكان هناك درج يصعد إلى سطح المنزل، وعثر المنقبون في أحد المنازل المعد لسكنى رجل لا بد وأنه انتمى إلى الطبقة الوسطى على غرفة استحمام تقع بجوار الغرفة الرئيسية، ونستدل على ذلك من أن أرضية هذه الحجرة وجدرانها قد كسيت من

الداخل بلوحات من الحجر الجيري الأبيض كما حوت حوضاً صغيراً من الحجر الجيري أيضاً يقوم في وسطها.

أما قصور الأغنياء فقد كانت في الواقع عبارة عن مجموعة من الأبنية متصلة بعضها بالبعض الآخر ويحيط بها كلها سور عال من اللبن، واستطاع المنقبون العثور على قصر بقيت منه أجزاء كثيرة تكفي لإعطائنا فكرة كاملة عن قصور هذا العصر، صاحب هذا القصر كان المشرف على قطعان ماشية معبد آتون الكبير، وتبلغ مساحته ٧٥×٧٠ متراً وتطل ناحيته الشرقية على شارع فسيح يمتد في وسط المدينة ويتجه نحو الشمال الغربي، وكان القصر ينقسم إلى جناحين، خصص أحدهما للرجال والثاني للنساء، ويتكون كل جناح من حجرات مختلفة الأحجام شيدت حول قاعة وسطى، يقوم سقفها على أعمدة من الخشب، وزخرفت جدران الغرف برسوم أكاليل الزهور، وطيور تتدافع فوق أغصان الأشجار، ومما يسترعي النظر في قصور الأغنياء بتل العمارنة اتساع رقعة الحدائق التي أحاطت بها، بينما المدينة شُيدت في منطقة صحراوية جدبة على الشاطئ الشرقي للنيل، ومن الطريف أن أحد أغنياء هذه المدينة حدثنا عن حديقته الغناء التي كانت تحوي أكثر من عشرين نوعاً من الأشجار المختلفة من بينها ٧٣ شجرة جميز، ١٧٠ شجرة نخيل، ١٢٠ شجرة دوم، ٥٠ شجرة تين، ١٢ كرمة عنب، ٥ أشجار من الرمان، ٩ أشجار من الصفصاف، ١٠ من أشجار الأثل، ٣١ شجرة وارفة الظل، هذا غير أحواض الزهور المختلفة، وهذا دليل ثابت يبرز لنا

مدى تعلق المصري القديم بالحدائق وولعه بالزهور، وفي الواقع يندر أن نعثر على منظر لم يسجل المصري القديم فيه رسوماً مختلفة للزهور تارة يشم عبقها، وتارة أخرى ينظمها في باقات كبيرة، وكانت الزهور من أهم ما قدمه المصري قرباناً للآلهة والموتى.

أما قصر إخناتون فكان واسع الأرجاء بنى في أقرب نقطة على الشاطئ، واخترقه شارع واسع شطره إلى قسمين اتصلا بواسطة قنطرة بنيت من الحجر، وتدل أطلال هذا القصر على أنه شيد بتصميم هندسي منتظم، فيقع مدخل القصر بين صرحين كبيرين كصرحي المعبد (البيلون) ويؤدي المدخل إلى فناء واسع يمتد على جانبيه صفان طويلان من الغرف استعملت كمخازن للقصر، وينتهي هذا الفناء بصرحين آخرين يتقدمان فناءً ثانياً تحيط به قاعات وحجرات المسكن الملكي حيث عاشت أسرة الملك يرفرف عليها الحب المتبادل، ويلي ذلك حديقة غناء شاسعة تتوسطها بركة كبيرة، أما مكاتب الموظفين فكانت تقع خارج السور الكبير الذي أحاط بالقصر.

تزوج إخناتون من أخته الرشيقة "نفرتيتي"[١] (الجميلة تتهادى)، وفازت (حالها في ذلك حال حماتها "تي") بمركز ممتاز، وعندما انتقلت

---

[١] يغلب على الظن أن "نفرتيتي" تنتسب إلى إحدى الأسرات الأجنبية التي كان يعج بها البلاط الملكي، وكثر الحديث عن الانبعاج الغريب الذي تميزت به مؤخرة الرأس للأميرات وخاصة في التماثيل والرسوم التي تمثلهن إبان الطفولة المبكرة، وواضح من التماثيل أن هذا الانبعاج لم يكن نتيجة لطريقة خاصة لتصفيف الشعر، بل هو نتيجة لمحاولة مقصودة، وهناك ما يدل على أن هذه العادة كانت متبعة في قبرص حوالي القرن العشرين قبل الميلاد، وكان هدف الأمهات إكساب مؤخرة الرأس انبعاجاً يمتد إلى الوراء، ويرد البعض أن يرى في ذلك نوعاً من الارتباط بين نفرتيتي وبناتها وبين جزيرة قبرص كوطن أصلي للأم.

الأسرة المالكة إلى تل العمارنة، كانت تتكون من الزوجين وابنة واحدة فقط وهي "مريت – آتون"، وبعد ذلك بعام ولدت الأميرة الثانية "ماكت – آتون" ثم ولدت الأميرة الثالثة "عنخ إس إن با أتون"، وتوالت بعد ذلك ثلاث بنات أخريات حتى بلغ عد ذريته ستاً، ولم يتم الهناء لهذه الزيجة السعيدة بإنجاب ابن يرقى للعرش.

كانت حياة إختاتون ونفرتيتي وأطفالهما في تل العمارنة هادئة تمر سنونها في التعبد لآتون والتنزه في حديقة القصر، وامتلأت المناظر التي سجلها عظماء هذه الفترة ورجالات الدولة الذين هاجروا مع الملك إلى العاصمة الجديدة فوق جدران مقابرهم[1] بأخبار الأسرة المالكة، فتجدهم تارة يرسمون الموكب الخاص بزيارة الملك والملكة وبناتها الصغيرات لمعبد آتون، وقد امتطى كل فرد منهم عربة خفيفة يجرها زوج من الخيول، وتارة أخرى يمثلون الاحتفالات الخاصة بإهداء الأوسمة والهدايا المختلفة إلى أصحاب النفوذ من رجالات البلاط، ويكون هذا بأن يقف الملك وحوله أفراد أسرته في شرفة قصره، وتتميز هذه المناظر بتخلصها من القيود القديمة التي هيمنت على الفن المصري من ناحية وعلى القيم الاجتماعية من ناجية أخرى، إذ سمح الملك برسمه وزوجته في مواقف تسودها الصراحة التامة، فكثيراً ما كانت يستقبلان رجال

[1] لم يخصص أهل العمارنة جبانة لمقابرهم على الشاطئ الغربي للنيل، كما هي العادة عند المصريين القدماء الذين اعتبروا الغرب المكان المخصص للموتى، بل إن كلمة "الغرب" في اللغة المصرية استعملت للتدليل على الجبانة، وكانت مقابر العمارنة منقورة في التلال الصخرية التي تحد المدينة من ناحية الشرق، ولابد أن هذه الظاهرة ترجع إلى أن ديانة "أتون" جعلت "للشرق" أهمية تفوق العرب، إذ هو المكان المقدس الذي يشرق منه الإله:

البلاط والزوجة لا تلبس إلا الأقل من الملابس، وكانا يحتضنان بعضهما أو يتبادلان القبلات سواء في القصر أو في العراء أمام الناس، وكثيراً ما نرى الملك وهو يداعب إحدى بناته وهي تجلس فوق ركبتيه.

وما دمنا نتحدث عن المقابر، فيجدر بنا أن نذكر بكلمة مدى التجديد الذي أدخله إخناتون على عقيدة المصري في الدنيا الثانية، ونحن نعرف كيف تعلق المصري بفكرة الحياة بعد الموت، وأعد العدة منذ عصور فجر التاريخ لتحقيق الخلود فيها، فقام بتزويد مقبرته بكل ما استعمله في حياته الأولى، فكدس الأدوات والأثاث والمآكل والمشارب في حجرة الدفن، كما زين جدران غرف الزار بشتى أنواع المناظر التي تذكره بالنشاط الذي اعتاد القيام به في حياة الدنيا الأولى! ولئن كان الشعب المصري يختلف في شيء عن غيره من الشعوب، فإنما ذلك في العناية التي كان يوجهها إلى موتاه، فقد كان الشويديون والبابليون والإغريق لا يتحدثون كثيراً عن مصير موتاهم على حين كان المصريون لا يألون جهداً في التفكير منهم بغير انقطاع، لقد عالج إخناتون هذه الناحية بحكمة بالغة، ولم يتحد عقيدة المصري في دنيا الموت بمثل ما تحدى عقيدته في آلهته الكثيرة، لقد سمح بنقر مقابر كبيرة في الصخر، كما نقر لنفسه ولأسرته مقابر في التلال الواقعة إلى الشرق من تل العمارنة، كما سمح لأهل الموتى وأقاربهم بتقديم القرابين من المأكولات الطازجة ليتغذى منها الميت ويسعد في دنياه الثانية، وسمح أيضاً بوضع جعل كبير محل القلب اعتاد المصري أن ينقش عليه نصاً فيه تحذير من

الميت إلى قلبه بألا يتحدث أمام قاضي محكمة الآخرة (أوزوريس) بسيئاته فيعرقل بذلك ذهابه إلى جنة الخلد، وفي آخر الأمر سمح باستعمال التماثيل الصغيرة المعروفة باسم "أوشابتي" (بمعنى المجيب) وهي تقوم على خدمة الميت في العالم السفلي، لقد سمح إخناتون بهذا كله، ولكنه طالب بإهمال كل التعقيدات التي تتطلب القيام بطقوس دينية مختلفة موجهة إلى أوزوريس مملكته، فإذا كانت هناك مقابر كبيرة قد حفرت في الصخر، فقد كان هذا لأن الموتى يجب أن يستقروا في المكان اللائق والوسطى إلى بناء الأهرامات، والتي دفعت أجداد إخناتون من ملوك الأسرة الثامنة عشرة أن ينقروا مقابرهم إلى أعماق كبيرة في باطن الصخر، ويخفوا أماكنها في مجاهل وادي الملوك، هذه العاطفة اختفت الآن تماماً.

من الواضح أن أهل العمارنة كانوا يفضلون التفكير في الحياة بدلاً من الموت، وإذا تحدثوا عن الموتى، تكلموا عنهم كأنهم يسكنون مقابرهم، وأن حياتهم فيها سوف تجري على نفس النمط الذي جرى في حياة الدنيا الأولى، أي ستكون حياتهم مليئة بالفرح والسرور برؤية إلههم آتون والتعبد إليه وبالتمتع بالشمس وأشعتها التي تكسب الأرض ومن عليها الحياة والرخاء، فحينما تطلع الشمس توقظ الميت فيقوم مسرعاً ليغتسل ويرتدي ملابسه، ويخرج إلى باب المقبرة ليصلي للإله ثم يذهب إلى صالة المعبد الكبرى ليخدم الشمس ويتوجه بعد ذلك إلى حديقته التي زرعها بنفسه ليتنزه فيها ويلهو حول بركته التي تتوسط الحديقة.

وليس من شك في أن هذا الاتجاه قضى تماماً على كل ما حوته عقيدة المصري من تخيلات ترسبت في عقولهم عن مملكة أوزوريس وعن المحاكمة التي يتعرض لها الناس بعد موتهم، وخروجهم منها "مبررين"، إذ تغلب أعمالهم الحسنة سيئاتهم فيدخلون حقول "أوزوريس" ك "بررة" لا ذنوب عليهم.

وهكذا نجح إخناتون في تحريم ديانة أوزوريس[١]، بل لم يحدث أن ذكر اسمه في نقش من النقوش التي وردت على جدران مقابر العمارنة، بل ولم تعد الصلوات الجنازية توجه إلى آلهة العالم السفلي أمثال أوزوريس وأنوبيس، ولكنها كانت ترفع إلى إخناتون رأساً وأحياناً أخرى ترفع عن طريقه إلى آتون، ولعل في المثل الذي أعطيه هنا صورة واضحة لما كان يشعر به أتباع الملك من المؤمنين بدعوته الدينية:

"طوبى له ذلك الذي يستمع إلى حكمه الحياة التي تنطق بها...

فلتضمن لي حياة طويلة وسعيدة كأحد أتباعك ولتجعلني أحظى بدفنة طيبة..

---

[١] لقد كانت أمنية كل مصري منذ أواخر الدولة القديمة أن يدفن في "أبيدوس" (العراية المدفونة بجوار البلينا حالياً) المقر المقدس للإله "أوزوريس" (أول سكان الغرب) أما من لم يستطع بناء مقبرته هناك، فكان عليه – على الأقل - أن يزور الإله هناك وأن يقيم لنفسه فيها لوحة تحمل اسمع حتى يضمن لنفسه مكاناً بين الممتازين من الموتى، وتدل مجموعات الآثار في العالم على ما كان لهذه العادة من انتشار، إذ أغلب الشواهد والنصب الصغيرة من الدولة الوسطى قد عثر عليها في أبيدوس، ومنذ عهد الدولة الحديثة أصبح لزاماً على الميت قبل أن يدفن في مقبرته أن يحج إلى أبيدوس: فتدخل جثته المحنطة إلى المنطقة المقدسة، كأنها فرد جديد من رعية الإله، وعليها أن تشترك في حفلان أعياده، ثم تعود الجثة بعد أن تتبرك لتوارى في مقبرتها.

ولتسمح لي أن أستمع إلى صوتك العذب في المعبد.

حين تؤدي الصلاة لوالدك آتون الحي"

هذا الدعاء، ومثله كثير، يوضح أن حياة الدنيا الثانية وسعادة الناس فيها تتوقف على إرادة الملك الإله الطيب الذي يملك التوسط بين شعبه وبين إلهه آتون.

أنشودة آتون

ومن أهم الشخصيات التي لعبت دوراً كبيراً في بلاط العمارنة، كان "آي"[١] الذي نقش منظراً لنفسه ولزوجته فوق جدران مقبرته المنحوتة في الصخر في جبانة العمارنة وهي المقبرة التي لم يقدر له أن يدفن فيها، إذ تولى العرش بعد موت "توت عنخ آمون" ونقر لنفسه مقبرة ملكية في منطقة وادي الملوك الغربي. نعود فنقول إن هذا المنظر يمثل آي وزوجته راكعين، ويرتلان أنشودة آتون المشهورة، التي اعتبرت بمثابة الأساس الذي قامت عليه ديانة هذا الإله الجديد، والتي قال عنها المؤمنون بهذا الدين إن الملك لم يحاول مرة أن يطلعهم على نصها، وهذه الأنشودة تعتبر بحق قصيدة شعرية رائعة تترنم بالشمس خالقة الوجود وكائناته، ليس في مصر فقط بل في العالم أجمع، وفيما يلي نصها:

"إنك تشرق جميلاً في أفق السماء

يا آتون الحي يا بدء الحياة

---

[١] لا نعرف الكثير عن "آي" وأسرته التي نشأ فيها، تزوج من سيدة رفيعة الشأن في البلاط الملكي، إذ كانت مرضعة الملكة "نفرتيتي"، واكتسب من هذه الزيجة حق حمل لقب مهم وهو "والد الإله"، اعتز به إلى درجة أنه تلقب به عندما ارتقى عرش مصر فيما بعد، وكان "آي" من أشد المتحمسين لدين "آتون"، ومن أكثر المقربين إلى "إخناتون" ودليلنا على ذلك أن الملك سمح له بنقش كلمات أنشودة "آتون" فوق جدران مقبرته في حين منع بقية رجالات البلاط من التعرف عليها، وحتم أن تكون صلتهم بآتون عن طريقه هو، ونكاد نعتقد أن هذا الدين لم يعرف دقائقه إلا أفراد الأسرة المالكة، إذا قال إخناتون في أكثر من مناسبة أن "آتون" كان إلهه الشخصي: "إنك في قلبي ولا يوجد من يعرفك غير ابنك الذي أرشدته إلى نواياك وإلى قوتك"، وعلى ذلك نستطيع أن نحكم علاقة "آي" بالأسرة المالكة من السماح له بنقش أنشودة آتون على جدران مقبرته.

إنك إذا أشرقت من جيل النور الشرقي
ملأت كل بلد بجمالك ومحبتك
إنك جميل، إنك عظيم
إنك تتلألأ عالياً فوق كل بلد
إن أشعتك تحيط بالأراضي كلها وبكل شيء خلقته
لأنك رع، ونستطيع الوصول إلى نهايتها
وتستطيع أن تجعل كل بلد أسيراً لك
إنك الإله الذي دان الجميع بحبك.
إنك ناء ولكن أشعتك على الأرض
إنك تشرق على وجوه الناس
ولا يستطيع أحد منهم أن يتكهن بسر قدومك

***

حينما تغيب في أفق السماء الغربي
أظلمت الأرض وأصبحت تبدو كأنها ميتة
فيستقر الناس في حجراتهم وقد غطوا رؤوسهم
وانخفض صوت زفيرهم
ولا ترى عين عيناً أخرى
ويتسلل اللصوص إلى المنازل
ويولون الفرار دون أن ينتبه أحد إليهم
أما السباع فهي تخرج من عرينها
والثعابين تنساب وتلدغ

ويخيم الظلام ويعم الأرض السكون
عندما يذهب خالقها ليستريح في أفقه الغربي
***
وإذا أصبح الصباح تشرق متألقاً في الأفق
وعندما تضيء كأتون أثناء النهار
تبدد الظلام ويستيقظ كل من القطرين مهللاً
ويصحو الناس ويقفون على أقدامهم

لأنك أنت الذي توقظهم

فيغتسلون ويلبسون ملابسهم

وترتفع أذرعتهم متعبدين لشروقك

ثم ينتشرون فى الأرض يباشر كل منهم عمله

أما الماشية فهي فرحة فى مروجها

والأشجار والنباتات فهي تزدهر

والطيور فهي ترفرف تاركة أوكارها

وتسبح أجنحتها بحمدك

وتقفز الحملان على أقدامها

وكل ما يطير أو يحط تهتر أعطافه

لأنك تشرق من أجله

***

وتبحر السفن شمالاً وجنوباً

وتعج الطرق بالناس

أما الأسماك في النهر فهي تقفز أمامك

إن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر

إنك تعطى الحياة للجنين في أحشاء النساء

وإنك تصنع من النطفة الرجال

وإنك أنت الذي يعنى بالطفل في بطن أمه

وتسكن روعه فلا يبكي

إنك بمثابة المربية للجنين وهو لا يزال في بطن أمه

إنك تهب نسيم الحياة لكل إنسان خلقته

إذا خرج الجنين من بطن أمه

جعلت من ذلك يوم ولادته

ثم تفتح فمه ليتحدث

وتدبر ما يحتاج إليه

وإذا صاص الفرخ في بيضته

فإنك تهبه الهواء لتبقيه حياً

ثم تمده بالقوة حتى يثقب بيضته

ويخرج منها وهو يصيص بكل ما لديه من قوة

ويسعى على قدميه إذا خرج منها.

***

ما أكثر مخلوقاتك

وما أكثر ما خفي علينا منها

أنت إله يا أوحد ولا شبيه لك

لقد خلقت الأرض حسبما تهوى أنت وحدك

خلقتها ولا شريك لك

خلقتها مع الإنسان والحيوان كبيره وصغيره

خلقتها وكل ما يسعى على قدميه فوق الأرض

وكل ما يحلق بجناحيه في السماء

خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر

وأقمت كل إنسان في مكانه

ودبرت لكل إنسان ما يحتاج إليه

وجعلت لكل منهم أيامه المعدودة

لقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم

كما اختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم

لأنك أنت الذي يميز أهل الأمم الأجنبية

***

لقد خلقت النيل في العالم السفلي

ودفعت به إلى أعلى حسب مشيئتك

ليحفظ أهل مصر أحياء

وذلك لأنك أنت الذي خلقتهم لأجل نفسك

وأنت سيدهم جميعاً، الذي يشغل نفسه من أجلهم

أنت يا شمس النهار

يا عظيماً في جلالك

***

أنت الذي يعطي الحياة لكل البلاد الأجنبية البعيدة.

لقد جعلت نيلا يهبط إليهم من السماء

وجعلت له أمواجاً تتدافع على الجبال كالبحر

لتروى حقولهم التي في قراهم

ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية

وهبت نيل السماء لشعوب الجبال

فأحييت حيوانها وكل من يسعى فوق أقدامه

أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلي

***

تغذي أشعتك كل حديقة

ويحيا وينمو كل نبات إذا ما أشرقت عليه

لقد خلقت الفصول لكي تحيي كل مخلوقاتك

وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك

ثم جعلت لهم الصيف ليتذوقوا حرارتك

لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق فيها

وحتى ترى كل ما صنعت

وذلك عندما كنت وحيدا

أنت الوحيد الذي يشرق في صورته كآتون الحي

ساطعاً متلألئاً رائحاً وغادياً

لقد خلقت من نفسك تلك الأشكال التي تعد بالملايين

مدنا وقرى وقبائل وجبالا وأنهاراً

كل العيون ترنو إليك

لأنك أنت آتون الذي يشرق في النهار على الأرض

***

وحينما تغيب

وكل الخلق الذين أمددتهم بالحياة

لكي لا تجد نفسك وحيدا بعيدا

يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما خلقته

إنك في قلبي

وليس هناك من يعرفك

غير ابنك "نفر خبرورع – واع إن رع" (إخناتون)

إنك أنت الذي ثقفته بتدبيراتك وقوتك

إنك أنت الذي أمددته بالحكمة

***

أنت الذي صنعت الدنيا بيديك

وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم

إذا ما أشرقت عاش الناس

وإذا ما غربت ماتوا

إنك أنت الحياة

ولا يحيا الناس إلا بك

تستمتع العيون بجمالك حتى تغرب

فإذا غربت في الأفق الغربي

ترك الناس أعمالهم كلها

ولكن عندما تشرق ثانية

يزدهر كل شيء لأجل الملك

لأنك أنت الذي خلقت الناس لأجل ابنك

الذي ولد من صلبك

ملك مصر العليا ومصر السفلى

الذي يحيا في الحق

سيد الأرضين "إخناتون"

الذي يحيا إلى الأبد

وكذلك من أجل كبرى الزوجات الملكية محبوبته.

سيدة الأرضين "نفر نفرو آتون" – "نفرتيتي"

التي تحيا وتزدهر دائما وإلى الأبد

***

هكذا استقر "إخناتون" في مدينته الجديدة يحيط به نفر من رجالات الدولة يبشرهم بدينه الجديد، ويترنم بأنشودته التي تعتبر قصيدة شعرية رائعة تشيد الشمس خالقة الوجود وكائناته، ولم تقتصر في خلقها على مصر بل على العالم أجمع. فواضح أن هذه الأنشودة تجعل من آتون إلهاً لكل الناس، فهو يشمل في مداه العالم كله، ويعترف الملك

في نص آخر نقشه على إحدى لوحات الحدود السالفة الذكر والتي حدد بها منطقة تل العمارنة، بأن الاعتراف بسيادة إله الشمس كان شاملا وأن جميع البشر يعترفون بسلطانه:

"إن آتون خلقهم لنفسه هو
فجميع الأراضي وأهل بحر إيجه يحملون ضرائبهم
ويأتون بجزيتهم فوق ظهورهم
ويتوجهون إلى الذي اوجد حياتهم
وهو الذي يحيي البشر بأشعته وينشقون الهواء"

ليس من شك في أن إخناتون أراد أن يقدم للبشرية دينا يعتنقه كل الناس في كل البلاد، ويجعل هذا الدين يحل محل القومية المصرية التي التزمها أهل مصر منذ أول العصور، فلا غرابة أيضاً إذا كان المصري في ذلك العصر لم يفهم مغزى ديانته ولم يستطع التعرف على كهنها. لا يسع القارئ لهذه الأنشودة إلا أن يقول بأن إخناتون يمثل لنا عبقرية تم نضوجها في وقت سابق لأوانها وأن ظهورها في القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان ميلاداً مبكراً جداً لها.

ثورة إخناتون الاجتماعية

ولعل التاريخ لم يذكر لنا عصراً حدث فيه ما حدث في عصر "إخناتون" من دعوة حاسمة لتغيير شامل في كل مظاهر الحضارة، لم تنصب فقط على المعتقدات الدينية، بل تعدتها إلى الأسلوب والقواعد الفنية التي ترسبت في تقاليد شعب عريق مثل الشعب المصري، كما لم يحدث قط أن استطاع إنسان التأثير على القواعد الأساسية للفن المصري. وللحكم على فن العمارنة يجب علينا أن نتفهم أصوله ونتعرف على أسلوبه، ونتذوق جمال خطوطه، ولا نستطيع ذلك إلا بعد مقارنة دقيقة بينه وبين ما أنتجه الفنان المصري، قبل إخناتون وبعده، ولعل التعبير عن خصائص فن العمارنة وإبرازه في الإطار المناسب، ليس بالمهمة السهلة الهينة، وأخشى ما أخشاه أن الألفاظ فقط سوف لا تنجح في التدليل على خصائص هذا الفن، وخاصة إذا قرأها قارئ لم تتح له فرصة المقارنة والدراسة الفنية العميقة.

ولست أشك أن دراسة فن العمارنة يجب أن تسبقها محاولة لفهم العناصر الحقيقية التي أثرت في أسلوبها وهي العناصر التي نستطيع أن نجملها في النقاط الثلاث الآتية:

أولاً: أسلوب الحياة المستمد من الحقيقة البحتة.

ثانياً: التعلق بأهداب التعبير بخطوط لينة متناسقة تكسب الصورة جمالا وطراوة.

ثالثاً: اضطرار الفنان على إدخال عنصر الحساسية على صورته.

نحن نعلم كيف اعتقد المصري منذ أول عصوره في ألوهية ملوكه، ونعرف أن الملك كان يسمى دائماً "الإله الطيب" أو الإله الكبير، واضطر المصري متأثراً بقداسة الصورة[1] أن يصور ملوكه في إطار يتفق مع تأليهه لهم، بمعنى أن صورة الملك تمثله يافعا، قويا، كامل الأعضاء، لا نقص فيه ولا عيب، ولعل هذا يعطينا فكرة عما شعر به المصري من

---

(1) من المعروف أن الجماعات البدائية ربطت بين عالم الخيال وعالم الواقع، حقيقة إنها تستمد تخيلاتها من الواقع ولكنها في نفس الوقت تكسب واقعها الكثير من عالم الخيال. لقد تصورت آلهتها شخوصا يعيشون ويتعاملون ويتزاوجون وينجبون تماما كما يحدث في عالم الواقع، ولكنهم في نفس الوقت يعتقدن أنها تعيش بمنأى عنهم في عالم الخيال. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اعتقدوا اعتقادا راسخا أن في استطاعتهم أن يستمدوا من عالم الخيال قوى مختلفة تساعدهم على التأثير بشكل معين على بعض أعمالهم وأفعالهم في عالم الواقع، هذه القوة الأخيرة هي ما تسميه بالسحر.. إن السحر في واقع الأمر ليس إلا تلك القوة التي يستمدها الإنسان من عالم الخيال ليستغلها في عالم الواقع. ولعل أول محاولة للإنسان الفطري في استعمال قوة السحر، كانت تلك الصور التي رسمها في كهوفه لحيوانات الصيد. ولا بد أن الفنان القديم قد رأى في تصويره لحيوان بعينه قوة سحرية تؤثر عليه وتجعله فريسة سهلة القنص، بل كان الإنسان الفطري يربط بين الحيوان وصورته. وبقيت الصورة تلعب دورها السحري عند الإنسان طوال حياته الفطرية، ولازمته أيضا في فترة الاستقرار التي تعارفنا على تسميها العصر الحجري الحديث. تطورت هذه الرسوم واستطاع المصري أن يخترع الكتابة الهيروغليفية التي لم تكن سوى صور عبر بها عن الواقع، إلا أنه كان يعتقد أيضا في العلاقة بينها وبين القوة السحرية. اعتقد المصري بوجود علاقة خفية بين الإنسان واسمه المكتوب، بل اعتقد أن الاسم المكتوب يكون الجزء الحي منه بل هو العنصر الذي يقوم شخصيته وقوته، ومن أجل هذا نرى المصري ينتقم من عدوه بمحو اسمه المكتوب على جدران مقبرته وذلك بعد موته، اعتقد المصري أن في محو الاسم قتل أبدي، إذ يسلبه بهذا العمل ذلك العنصر القوي الذي تقوم عليه حياة الإنسان في عالم الدنيا الثانية. وانتقلت القوة السحرية للكتابة إلى الصورة التي تمثل شخصا. ومن أجل هذا كان الفن عند المصري القديم سواء كان نقشا أم نحتا، يعني شيئا آخر يختلف تماما عما يعنيه لنا لقد كانت الصورة بالنسبة إليه لا تعني خطوطا يتمثل فيها الانسجام الفني فقط، بل هي تحوي عناصر حية. إن الرسوم التي تغطي جدران المعابد والمقابر بما تحويه من أفراد وحيوان أو نبات وأدوات، تتحول إلى كونيتها الحية المادية، بل وتدب فيها كل عناصر الحياة، وإنها ستؤدي نفس الغرض الذي كانت تؤديه لنفس الشخص أثناء الحياة الدنيوية بل أكثر من هذا كان يتحتم معاملة الأشخاص في الفن طبقا لمركزهم في الحياة العامة فالملك يبدو في رسمه أكبر حجما من موظفيه كما يبرز هؤلاء في حجمهم صور الإنتاج والعامة.

غصة عندما طلع عليه إخناتون بذلك التجديد في تصوير الملك "الإله الطيب" تصويراً يستمد أصوله من الحقيقة والواقع، وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى عرض واقعي لحياة الملك اليومية، فأمر فنانيه أن يرسموا له صورا وهو يأكل ويشرب مع أفراد أسرته وهو يداعب بناته، وزوجته تضع قلادة حول رقبته، وهو واقف وقفة كلها استرخاء واضعاً عصاة طويلة تحت إبطه معتمداً عليها وتقف أمامه زوجته.. إن هذه الصور كان لا يمكن مطلقاً لأي مصري أن يحلم برؤيتها لملكه المقدس قبل عصر إخناتون، بل واختفت تماماً بعد عصره.

ولم يكن الأمر قاصرا في ذلك على الملك وأسرته بل اتبع أهل العمارنة هذا الأسلوب في تسجيلاتهم سواء منها ما يمثلهم أنفسهم أو ما يمثل أتباعهم وخدامهم، وأصبحت الصورة تمثل لنا حشدا من الناس على اختلاف طبقاتهم وتنوع حركاتهم، وتنبض بحياة تستمد أصولها من الواقع والحقيقة. ومما يجدر ذكره هنا أن اللغة التي سجل بها أهل العمارنة أحداثهم شملها هذا التجديد، فلم تكتب بذلك الأسلوب الرصين التقليدي الذي اتبعه المصري منذ أول عصوره التاريخية، بل كتبها باللغة التي يتكلمها الناس فعلاً، تحوي (التعريف) (والأفعال المساعدة) وكل ما استعمله أهل العصر من تعبيرات في حياتهم اليومية، لقد بلغ عشق الملك للحقيقة والواقع حدا جعله يرفع من اللغة العامية ويجعلها اللغة الرسمية للمعبد والبلاط ويلغي تلك اللغة القديمة التي كان الرجل العادي

لا يفهم منها إلا ذلك القدر الذي يفهمه الريفي الحالي من لغة العرب في عصر الجاهلية

أما الخطوط اللينة التي اتبعها فنان العمارنة فهي ظاهرة لا بد لكل عاشق للفن المصري أن يتبينها عند المقارنة بين أساليب الفن قبل وبعد عصر إخناتون، ومن المعروف أن رجال متحف الجامعة بلندن قد وضعوا جزءًا من تمثال لإحدى بنات إخناتون، فترة طويلة في القسم اليوناني به، اعتقادا منهم أنها من صنع أحد فناني العصر اليوناني، ولعلهم كانوا علي حق في اعتقادهم هذا، فليونة خطوط هذا التمثال وطراوة أعضاء الجسم الذي يكاد ينبض بالحياة من وراء الرداء الشفاف الذي ارتدته الأميرة، لبعيدة كل البعد عن قيود الفن المصري المعروفة، وهي القيود التي التزمها الفنان المصري طوال العصور ولم يستطع التخلص منها إلا في عصر العمارنة.

وعنصر الحساسية أمر جديد علي الفن المصري، أدخله فنان العمارنة واستطاع تأديته ببراعة تستحق الإعجاب، هناك رسوم أضفى الفنان على أعضاء الإنسان فيها ما يومئ بمشاعر صاحبها وأحاسيسه، فهناك ذراعان تتمثل طريقة رفعهما إلى أعلى وحركات أصابع اليد على ما يفيض به قلب صاحبها من تضرع وإيمان نحو الإله آتون، وهناك ذراع مدته امرأة تندب عزيزا لها وترى بوضوح طريقة تمثيل اليد وانحنائها البسيط إلى أسفل مع التواء أصابعها ما يبرر مدى حزن السيدة وما تشعر به من آلام أضفت علي أطراف يدها نوعا من التشنج.

ليس من شك في أن هذه الاتجاهات الجديدة التي سبق ذكرها قد طبعت فن العمارنة بطابع جعله يختلف اختلافا واضحا عن الفنون التي سبقته والتي أتت بعده، ومن أجل هذا يود البعض أن يبحث جاهداً في إيجاد نوع من التأثير الأجنبي، لعل إخناتون يكون قد استوحي منه القواعد الجديدة في فنه. هؤلاء يؤكدون تأثر فن العمارنة بفنون شعوب البحر المتوسط وخاصة بفن جزيرة كريت وبفن ميسينا في شبه جزيرة البلقان، ويعتمدون في ذلك على أن الفن المصري لم يعرف الحركة كما لم يحاول الفنان أن يكسب أجسام البشر والحيوان في تحركهم تلك الالتواءات في الأعضاء التي تتناسب مع الحركة التي يقوم بها الجسم، ولنضرب لذلك مثلا نختاره من المناظر التي حرص كل شريف علي تصويرها فوق جدران مقبرته، وهو منظر صيد الحيوان، فكان الفنان يرسم مجموعة من الحيوانات المختلفة نافرة هاربة أمام صياديها، وهو في هذه الحالة كان يجب أن يضفي علي أعضاء جسم كل منها ما تتسم به من تقلصات تتناسب مع حركات الجري والهرب، ولكنه في واقع الأمر كان يرسمها كأنها واقعة ترتكز بأقدامها الخلفية والأمامية علي الأرض، اللهم إلا انحراف بسيط للأرجل الأمامية نحو الأمام وللأرجل الخلفية نحو الخلف واستمر الفنان يمثل مناظر صيد الحيوان بهذه الطريقة حتى عصر العمارنة، وفجأة رأيناه يمثلها في أوضاع مختلفة ويمثل حركات الجري والهرب أصدق تمثيل فترتفع الأقدام الخلفية في الهواء في حين ترتكز الأقدام الأمامية على الأرض، ونجد ظهور الحيوان وقد تقوست إلى أسفل وبرزت عضلات كتفيها، وهذه الطريقة بالذات ظهرت بوضوح في

الفن الكريتي والمسيتي منذ الألف الثانية قبل الميلاد وبقيت من أهم مميزاته في العصور التالية.

غير هذا المثل الذي أوضحناه هناك أيضاً مثل آخر، وهو الطريقة التي اتبعها فنان العمارنة في رسم النباتات والزهور وأسراب الطيور التي تقف علي قممها والتي نهم بفرد أجنحتها لتطير عنها إذا أحست بخطر أخذ يقرب منها، لقد أبدع فنان العمارنة في صياغة هذا الموضوع في رسومه بحيث جعله ينبض بالحياة المملوءة بالحركة، ويقول أصحاب نظرية تأثر فن العمارنة بفنون أجنبية أن هذا الأسلوب الفني في رسم النباتات والزهور وأسراب الطيور قد أخذه الفنان في عصر إخناتون عن الفن الكريتي.

لقد قلنا فيما سبق أن مصر كانت منذ أول الأسرة الثامنة عشرة، قد أخذت تتعرف علي حضارات جديدة وأن المجتمع المصري باختلاطه مع الشعوب الأخرى، قد أخذ يخرج من عزلته الحضارية ويسمح بدخول عناصر أجنبية علي حضارته ولكن لست أشك أن إخناتون كان في تجديداته التي أدخلها علي الديانة وعلى التقاليد وأسلوب الفن: مصرياً قلباً وقالباً، ولقد سبق أن أوضحت كيف أن عناصر التوحيد التي أبرزها إخناتون في أنشودته، مصرية بالطابع عرفها المصري ونادى بها من قبل، ولو أن الإطار الذي حوى هذه العناصر قد اختلف بعض الشيء في عصر إخناتون ومن أجل هذا لست أشك أن الفنان المصري. عندما انطلق من القيود التي كبلته، استطاع أن يأتي بالمعجزات، ولو أنه قد قدر

لإخناتون أن يعيش فترة من الزمن تطول عما عاشها لكنا قد وصلنا إلى تلك القواعد الفنية التي أظهرها الفن الإغريقي منذ القرن الخامس قبل الميلاد.

الدعوة الجديدة تصاب بنكسة

نعود فنقول بينما كانت المدينة الجديدة تموج بأتباع إخناتون يبتهلون لآتون ويترنمون بأنشودته، كان العمال والصناع يعملون علي تنفيذ أوامر الملك في محو اسم (آمون) من كل عمائره، والتنكيل بكهانه، واشتد النزاع وانتشر الفزع وعم اليأس أهل طيبة، ومرت الأيام والحالة تزداد سوءًا، والعراك يشتد تأججاً، وهنا اضطرت الأم الملكية (تي) إلى أن تتدخل. لقد ظلت هذه السيدة تعيش في قصرها بطيبة بعد موت زوجها، ولا شك أنها أحست بالخطر الداهم الذي أخد يحيط بمصر كلها نتيجة لسياسة ابنها، فأخذت تسعى لتخفيف وطأة الأزمة وسارعت بالسفر إلى العاصمة الجديدة في العام الثاني عشر من حكم الملك، ولقد سجلت أخبار هذه الزيارة في مقبرة أحد أشراف هذا العصر المدعو (حوي)، ويبدو من هذه التسجيلات أن الأمور كانت تسير من حيث المظهر الخارجي في إطار ودي، فمثلاً كانت (تي) تصاحب أفراد الأسرة الملكية في زياراتها لمعبد (آتون) بل وكانت تشترك معهم في العبادة، كما قبلت الجلوس أمام أحد مثالي العمارنة لينحت لها تمثالاً، ومن أهم مناظر هذه المقبرة المنظر الذي يصور الحفلة التي أقامها الملك لأمه، وظهر فيها أن "تي" كانت قد استصحبت معها ابنتها الصغرى "باكت آتون" إلا أن هذه الزيارة حملت بين طياتها أهدافاً أخرى! إذ لا يمكن أن تحدث هذه الزيارة في العامذاته الذي بدأ إخناتون يغير فيه سياسته ومن

غريب أمر هذه الزيارة أنه قد جاء على أثرها حادثان أولهما: أنه قد حدث شقاق بين إخناتون وزوجته المحببة إليه "نفرتيتي"، واتسعت الهوة بين الزوجين إلى درجة أن تركت الملكة القصر وذهبت إلى منزل يقع في أقصى الشمال من المدينة، وعوقبت بأن حرمت من لقبها الذي منحه لها زوجها وهو "نفر– نفرو – آتون" وأعطى هذا اللقب إلى الأخ الأصغر للملك وهو "سمنخ كارع" الذي زوجه من ابنته "مريت آتون" وأشركه معه في الحكم.

أما الحادث الثاني فهو أن "سمنخ كارع" أوفد هو وزوجته إلى طيبة لتهدئة الحالة فيها، ولعلمها توجها إليها تحت ضغط من "تي" كمندوبين الملك..

ولسنا نشك أن "سمنخ كارع" حاول أن يهادن كهنة آمون، بل إن الاشتراك في الحكم لم يكن إلا وسيلة لتغطية موقف إخناتون الذي أقسم كما أسلفنا القول ألا يترك عاصمته الجديدة طالما كان على قيد الحياة، وربما كانت صحته قد ساءت إلى درجة لم تمكنه من الانتقال إلى طيبة والتفاهم مع أعدائه، واعتقدت "تي" أن الشريك الصغير في الملك سيعمل على إنقاذ الدولة من الهوة السحيقة التي تردت فيها، ولم يكمن الخطر فقط في الانقسامات المذهبية، بل في الثورات التي تفشت في مستعمرات مصر بآسيا، فبينما كانت الأيام تمر سراعاً على إخناتون

وهو قابع في قصره بمدينة العمارنة يتعبد لإلهه، أخذت الرسائل[١] تنهال على مصر من أراء مدن سوريا وفلسطين، طالبين النجدة العسكرية للقضاء على عوامل الفتنة والثورة التي كانت قد تفشت بين الناس في مناطق الإمبراطورية المصرية، ولكن الملك كان يسد أذنيه ولا يستجيب لطلباتهم، وانتهى الأمر بأن ضاعت كل المناطق التي ضمها أجداده الجبابرة بحد السيف إلى بلاده، وكان على خلفائه من ملوك الأسرة التاسعة عشرة أن يبدأوا من جديد ويستعيدوا أجزاء الإمبراطورية المصرية جزءاً جزءاً، نعود فنقول إن "سمنخ كارع" ذهب إلى طيبة محاولاً إنقاذ البلاد ومبتدئاً بعرض الهدنة على كهنة آمون، ولكن هذه المحاولة لم تفلح وبقي الشعب الطيبي على عدائه لإخناتون.

فترة عصيبة ولا شك، لا بد وأنها جعلت الملك الفيلسوف العاشق لآتون المبتهل له المحب للسلام، الذي كره وحاول جهد استطاعته أن يمجد الحق ويرفع من شأن "الماعت"، جعلته يئن تحت عبء ثقيل من المسئوليات ويجثم على صدره شعور بخيبة الأمل لا حد له.. ينظر حوله فيرى حبيبته المفضلة "نفرتيتي" لا تستطيع أن تتفهم ما يجري في البلاد وترفض أن تترك المثل العليا للثورة وتصمم على السير في طريق العداء المر لكهنة آمون وتقبع في دارها التي انتقلت إليها في

---

[١] عثرت إحدى الفلاحات على مجموعة من اللوحات الطمبية المجففة أثناء نقلها لبعض السباخ في مدينة العمارنة وأهمل الناس أمر هذه اللوحات لأنها حوت كتابات لم يفهموا كنهها، ولكن ما لبث العلماء أن عرفوا أمر هذه اللغة وأنها كتابات إسفينية باللغة الأكدية، وأن هذه اللوحات (بلغ عددها ٣٣٧) تحوي رسائل توضح العلاقات الدولية بين مصر والبلاد المتاخمة مثل سوريا وفلسطين وبابل وأشور وميثاني وخيتنا منذ عصر الملك أمنحوتب الثالث وطوال عصر إخناتون.

شمال المدينة، تشاركها الحياة فيها ابنتها الثالثة "عنخ إسبا آتون" وأخوها غير الشقيق والذي تزوج ابنتها فيما بعد "توت عنخ آمون"، ثم أمه "تي" التي ساعدته في أول الأمر وساندت دعوته لعبادة إله واحد ودفعته دفعاً لإثارة حرب لا هوادة فيها ضد آمون وكهنته، وأصبحت الآن ترى رأياً آخر، تطلب منه وتستحثه لمهادنة ألد أعدائه، ويرنو ببصره نحو طيبة فإذا بالناس هناك يتهمونه بالزندقة ويطلقون عليه اسم "المارق" ويتوعدونه بالقتل ويرفضون الإذعان لدعوة شريكه في الحكم "سمنخ كارع" للتهادن، مع أنه كان قد أظهر لهم رجوعه عند ديانة "آتون" وتعلقه بأهداب آمون، ودليلنا على ذلك، نقش مؤرخ من العام الثالث من حكمه شريكاً لإخناتون وقد كتبه أحد كهنة معبده الذي شيده لآمون في طيبة ويحوي النص ابتهالات لأمون، ثم يسرح ببصره إلى مستعمرات بلاده في آسيا القريبة، فيجدها قد تضاءلت وذهب معظمها إلى حد محاولة الاعتداء على مصر نفسها، وأصبحت خزانة الدولة خاوية خالية من ذلك الدخل الضخم الذي كان يأتيها من هناك.

لا بد وأن هذه المشاعر كانت تطحن جسمه العليل طحناً، ولا بد أيضاً أنه قد مات في أعقاب هذه السنة مباشرة، لقد مات بعد أن حكم مصر لفترة تسعة عشرة عاماً أو أقل، منها كما ذكرنا آنفاً ستة أعوام مشتركاً مع أبيه في الحكم، والثلاثة عشر عاماً حكمها بمفرده.

مات إخناتون واختفى دون أن نعلم ما حدث له في نهاية عمره، ولو أننا نرجح أن موته حدث نتيجة لمؤامرة دبرت لقتله. ومما يؤسف له

أنه لم يتم حتى الآن العثور على مقبرته، ونذهب إلى حد التوكيد أنه لم يدفن في المقبرة التي نقرها لأفراد أسرته في التلال الحجرية الواقعة إلى الشرق من مدينة تل العمارنة، وهي المقبرة التي لم يدفن فيها سوى ابنته الثانية التي ماتت في سن مبكر وفي أثناء حياته.

اختفى "إخناتون" واختفى معه أخوه وشريكه في الحكم "سمنخ كارع"، ولعل أهل طيبة اعتدوا عليه وقتلوه بعد أن تخلصوا من إخناتون، وبقيت مصر دون وريث شرعي للعرش وبدأت المؤامرات تحاك من أكثر من جانب، فهناك نفرتيتي الغاضبة الحانقة قد خلا لها الجو، وهناك الأم الملكية "تي" التي عاصرت البلاد في أزهى فتراتها، والتي شاركت زوجها في كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة، وبقيت متمتعة بمركزها الممتاز أيام ابنها "إخناتون"، وهناك أيضا كهان آمون المنتصرون الذين لم يألوا جهداً لاستعادة جبروتهم،كل هذا كان يحدث والبلاد تسير بخطى واسعة نحو الهوة العميقة، إذ ساد الفساد وانتشرت الفوضى وعم الفقر كل الطبقات بعد أن ضاعت المستعمرات المصرية في آسيا وانقطاع ورود الجزية.

في هذا الجو المشحون بكل عوامل الكراهية والحقد والفساد تأتينا الأخبار أن "نفرتيتي" تحاول الثأر لنفسها، فترسل خطاباً إلى الملك الحيثي "شو بيوليما" تخبره فيه أن زوجها قد مات ولم ينجب منها ولداً،

وتطلب منه أن يرسل أحد أبنائه ليتزوجها ويتولى عرش مصر[١] كان هذا التصرف من "نفرتيتي" بمثابة صنعة دنيئة علي وجه مصر والمصريين، يحدث هذا في العصر الذي حاول فيه أكثر من ملك آسيوي أن يخطب لنفسه أو لابن من أبنائه إحدى بنات البيت المالك المصري، فكان يأتيه الرد دائما بالرفض، واستجاب الملك الحيثي لهذه الدعوة وأرسل بالفعل أحد أبنائه الذي لم يكد يصل على مقربة من الحدود المصرية حتى داهمه بعض المصريين وقتلوه، وقضوا بذلك على هذه المؤامرة، أو حسب رأي مصريي ذلك الوقت، قضوا علي هذه الخيانة العظمى.

---

[١] **صمتت الآثار المصرية عن هذا الحادث ولم تذكره وثيقة ما، إلا أن إحدى الوثائق الحيثية التي عثر عليها في أطلال، "بوغاز كوي" العاصمة القديمة لدولة الحيثيين، ذكرت هذا الحادث، وقام بتسجيله الملك "مورسيل الثالث" ابن "شوبيلوليما".**

العودة إلى القديم

وقف الحظ بجانب مصر في هذه الأزمة، وهيأ لها حفنة من الرجال احتفظوا برباطة جأشهم ولم يندفعوا في معالجة الأمور، بل وأظهروا قناعة لا مثيل لها، إذ لم يرن أحدهم نحو الاحتفاظ بالعرش في أسرته أو توريثه لأولاده، بل عاهدوا أنفسهم علي أن يخلف الواحد منهم الآخر، هؤلاء هم "آي" و"حور محب" و"رعمسيس". أرادوا حلاً سريعاً لتهدئة الموقف فالتجئوا إلي صبي في سن الحادية عشر وهو "توت عنخ آتون" ونصبوه ملكاً علي مصر علي أساس أنه قد اكتسب شرعيته للجلوس علي عرش مصر عن طريق زوجته "عنخ إس إن با أتون" ابنة إخناتون الثالثة، ولست أشك أن هذا الاختيار حدث من الملكة الأم، وإرضاء لمشاعرها وتكريماً لها فهي التي بدأت باتخاذ الخطوة التي انتهت بنصر "آمون" وكهانه.

كان "توت عنخ آتون" صبياً حسن النية، ضعيف الإرادة سارع بإظهار ولائه لآمون وكهانه، بل وأعلن خضوعه الكامل بقبوله تغيير اسمه واسم زوجته بأن حذف منهما كلمة "آتون" مستبدلاً بإياها "آمون" وهجر تل العمارنة واستقر في طيبة، وقام بترميم المعابد التي هدمها أو خربها إخناتون، وأرجع إلى آمون ما كان له من ضياع وثراء، بل ضاعفه، ولعل اللوحة التي أقامها في الكرنك ونقش عليها نصاً طويلاً متحدثاً فيه عن

مشاعره نحو الماضي وطريقته التي اتبعها لمعالجة الموقف، لخير ما يفسر لنا ما كانت عليه مصر في هذه الفترة:

"لقد تهدمت معابد الآلهة والإلهات.. وهجرت
هياكلها، وأصبحت أكواما عالية... وأصبحت
الأرض شذر مذر، وأدارت الآلهة ظهرها للبلاد..
وإذا صلى إنسان لإله يسأله النصح لا يأتي إليه
أبداً، وإذا دعا الإنسان إلهه أيضاً لا تأتي إليه أبداً،
لقد أوذيت قلوبهم، لأنهم حطموا ما سبق عمله".

هذا ما كان مصري ذلك الوقت يراه بالنسبة إلى الأحداث التي صاحبت ثورة إخناتون، لقد اعتبروها زندقة وهرطقة لم يحدث مثيلاً لها في أي عصر آخر، وكان لزاما على "توت عنخ آمون" أن يرضي الآلهة الغضبى لعلها "تأتي إلى من يسألها النصح" وتعود إلى سيرتها الأولى بالنسبة إلى عبادها والمؤمنين، بها وفيما يلي نراه يفصح عما اتخذه من خطوات لإرضاء أبيه "آمون" أولاً:

أولاً: "وتداول جلالته مع قلبه في المشروعات باحثاً عن أي عمل مفيد، وباحثاً عما يخدم به أباه "أمون"، فرأى أن يصنع له تمثالاً عظيماً من الذهب الخالص، يفوق ما كان مصنوعاً من قبل، وجعل محفة جلالة هذا الإله العظيم (تحمل) قبل ذلك علي أحد عشر حاملاً".

ثانياً: "رسم كهنة وسدنة للإله من أبناء نبلاء بلادهم، كل منهم ابن رجل معروف، ذي اسم معروف".

ثالثاً: "ضوعفت كل أملاك المعابد؛ وأصبح لها ثلاثة أمثال وأربعة أمثال ما كان لها من الفضة والذهب واللازورد..."

رابعاً: زيد خدم المعابد على حساب الملك وكانت تحتسب أجورهم على القصر من ثروة سيد القطرين".

هذا وقد دلت الدراسات الطبية التي أجراها العلماء على جثة "توت عنخ آمون"، أنه مات في سن مبكر ولم يبلغ بعد العشرين من عمره، ونظراً لأن النصوص التي وصلت إلينا من عصره تؤرخ أحداث عصره حتى العام التاسع من حكمه، فنستطيع أن نقول بأن فترة العمارنة قد انتهت حوالي (١٣٤٩ ق.م) إذ أن هذا الملك كان يمثل لنا البقية الباقية من أولئك الذين بدؤوا حركة التوحيد والدعوة لآتون.

***

ارتقى "آي" العرش بعد "توت عنخ آمون" ولقد عرفناه من قبل مقربا إلى "إخناتون" وممن اعتنقوا ديانة "آتون"، ولسنا ندري الطريقة التي اتبعها ليكتسب شرعية للعرش، فالبعض يقول إنه تزوج من "عنخ إس آمون" أرملة "توت عنخ آمون" ولكن هذا القول مشكوك فيه ولم تأتنا النصوص بما يثبته، كما أن مقبرته التي نقرها في منطقة وادي الملوك

الغربي لم تحو رسوماً لسيدة غير زوجته الأولى "ني" مرضعة الملكة "نفرتيتي".

لم يحكم "آي" أكثر من ثلاث سنوات وخلفه "حور محب" القائد المحنك الذي اضطر في أول الأمر ولفترة قصيرة أن يسير مع التيار الجارف ويجامل "إخناتون"، فنراه يطلق على نفسه اسم "با اتون إم حب"، ويبدو أنه استقر فترة في تل العمارنة إذ عُثر على مقبرة له في حياتها ولكنه لم يلبث أن هجر العاصمة الجديدة[1] واستقر في "منف". بعد أن عين قائداً عاماً للجيوش المصرية[2]، وبقي محتفظاً بوظيفته هذه طوال عصور "إخناتون" و"توت عنخ لآمون" و"آي". واضطر في آخر الأمر أن يسارع إلى طيبة ويرتقي عرش مصر بعد أن تزوج من الأميرة "موت ندحم" من أميرات البيت المالك القديم، واستطاع هذا الرجل بجرأته وشدة مراسه أن يعيد لمصر ثقتها في نفسها ويعيد الطمأنينة إلى النفوس ويقضي تماماً على كل عوامل الفتنة ومات عام (١٣١٩ ق.م) تاركاً وراءه عرشاً قوياً وبلاداً مستتبة بعد حكم قاربت مدته الثلاثين عاما، ترك الدنيا ولم يحاول توريث العرش لأحد من أبنائه بل خلفه عليه صديقه "رعمسيس" وكان قد بلغ من السن عتيًّا؛ وبذلك تبدأ في التاريخ المصري فترة الأسرة التاسعة عشرة.

---

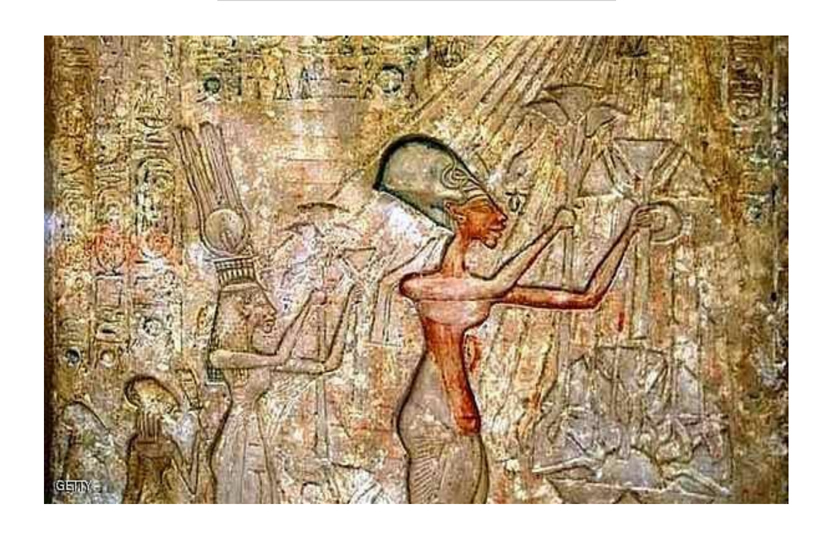
(1) نقر "با اتون إم حب" مقبرة في جبانة تل العمارنة، ولكن العمل لم يتم فيها، وتدل حالتها على أن صاحبها لم يحاول مطلقاً أن يستحث العمال على إنهائها إذ لم تحو حجرتها الأولى إلا القليل من الرسوم.

(2) أصبحت منف منذ عصر الملك "تحوتمس الأول" المقر الرسمي للقائد الأعلى للجيوش المصرية، وكانت هذه الوظيفة تسند عادة لولي العهد، الذي يتلقى تدريباته العسكرية في ثكناتها، ويبدو أن حور محب تولى هذه الوظيفة نظراً لعدم وجود ولي عهد الملك إخناتون.

ملحق صور



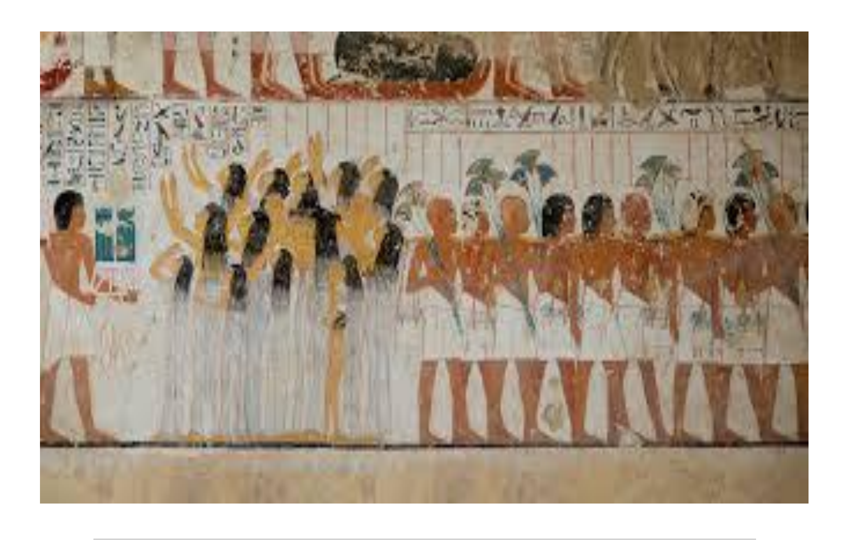
أخناتون على هيئة أبو الهول في العمارنة



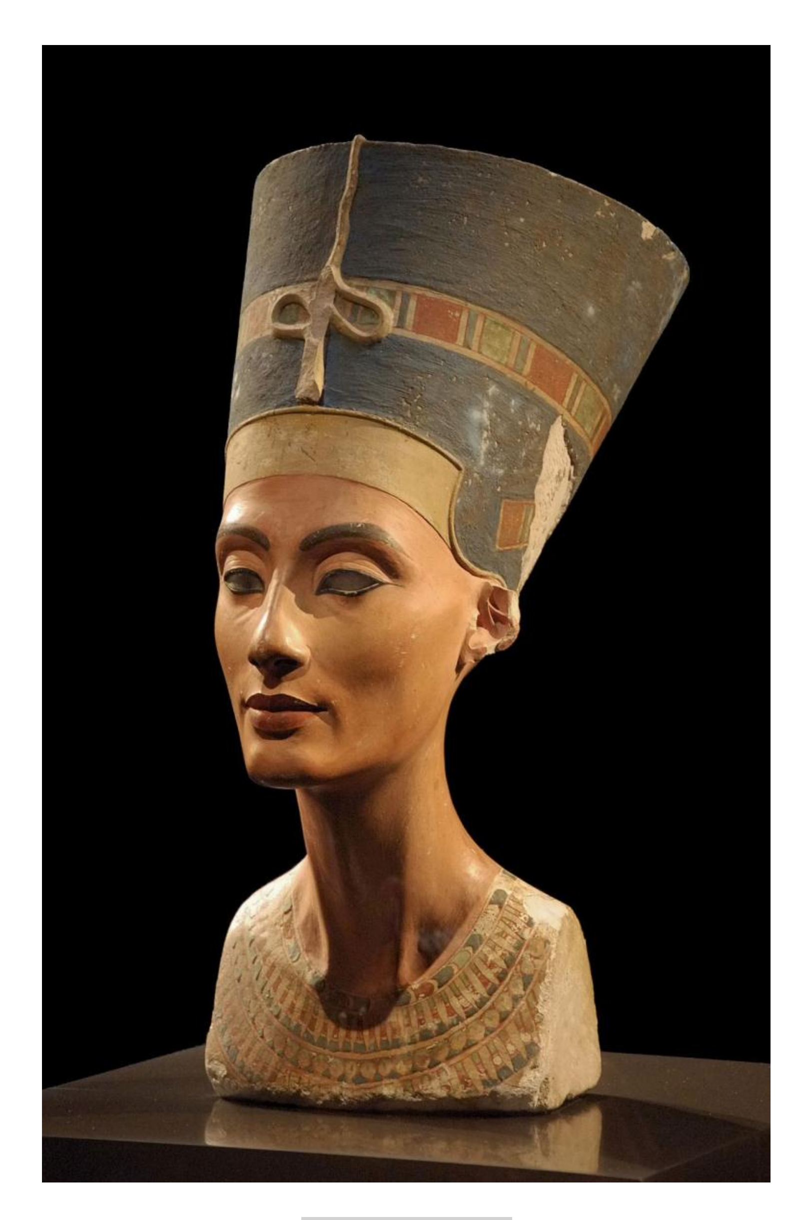
اخناتون و زوجته نفرتيتى تحت أشعة أتون يقدمون القرابين



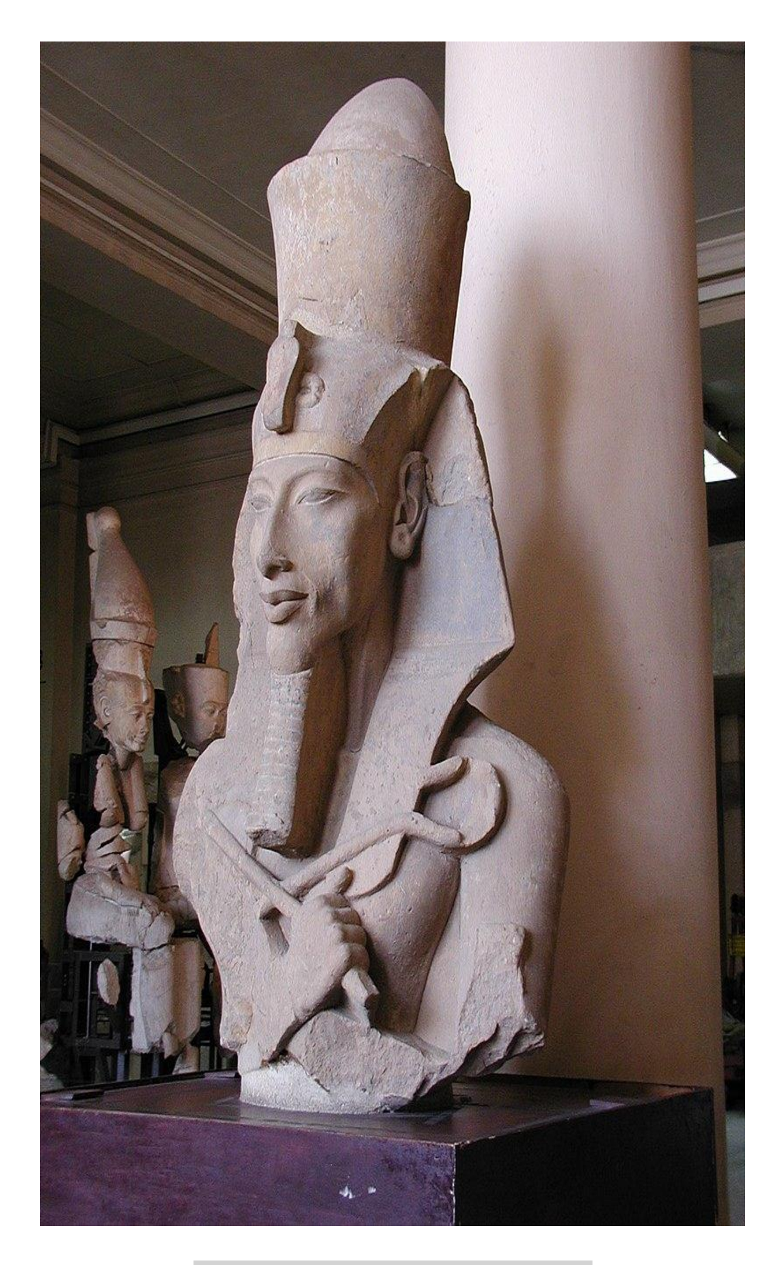
إخناتون ونفرتيتي يلاعبان أطفالهما



مقبرة الوزير رعموزا الذى عاصر كل من امنحوتب الثالث واخناتون



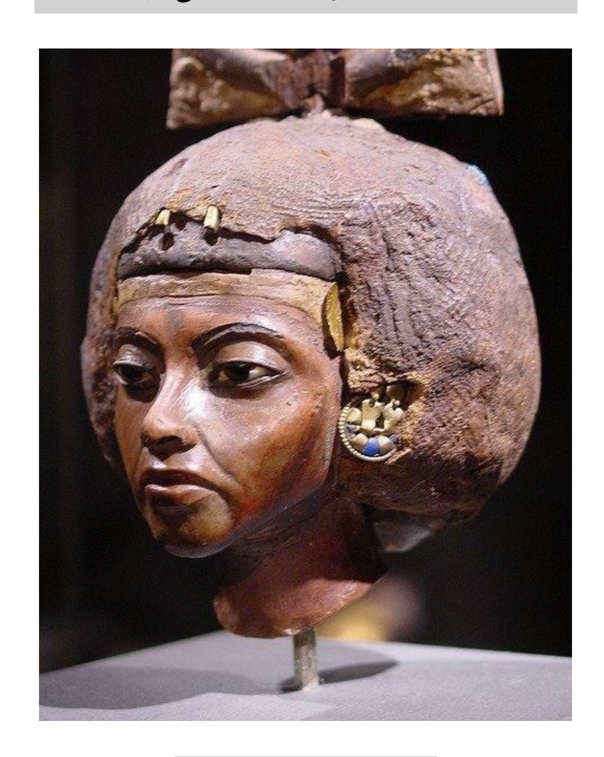
نفرتيتى زوجة اخناتون



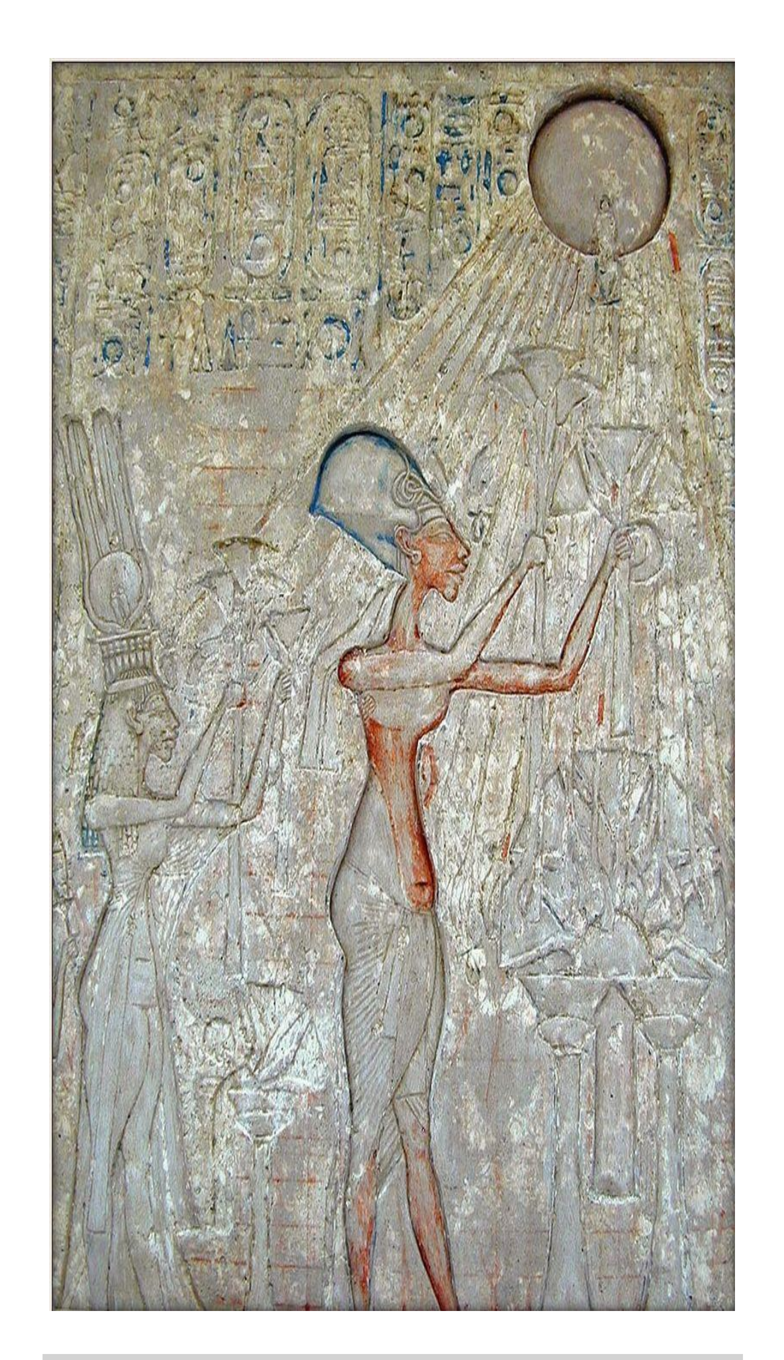
تمثال لأخناتون بأسلوب العمارنة المُبكر



تمثال أمنحتب الثالث وزوجتة الملكة تى واحدى بناته



الملكة– تى– أم–اخناتون



إخناتون وأسرته يصلون لآتون (الشمس) ويقدمون إليه القرابين

المراجع

١) Wilson, John. The Burden of Egypt. P. 161 (The Univ. of Chicago 1951).

٢) Ranke, Herman. Studies Presented to F. Griffith. P. 412 ff (London 1932).

٣) Breasted J. H. "Ancient Records of Egypt. Vol. II. P. 344 (Univ of Chicago Press 1906).

٤) Breasted, J. H. ibid vol. II p. 349.

٥) Mecer, . The Tell – El- Amarna Tablets. Vol. I. p. 187.

٦) Mercer, ibid Vol. II p. 15.

٧) Mercer, ibid Vol, i. p. 20.

٨) Dossin. Une Nouvelle Lettre d'El-Amarna. (Rev. d'assgrologie. Vol II).

٩) Mercer, ibid, Vol. I p. 23.

١٠) "مصر القديمة" – سليم حسن – الجزء الخامس – صفحة ٢٥٨.

١١) Sethe, K. Uebersetgung und Kommenta v zu den "Alten Aegyptichen Pyrmidenteten" B. IV Lieferug 2 Seite III ff.

١٢) Hassan. S. "Hymnes Religieux du Moyen Empire" p. 157.

١٣) "مصر والحياة في العصور القديمة" تأليف "دولف أرمان" و"هرمان رانكه" – ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص ٤٤٠ – ٤٤١.

١٤) Breasted, J. H. the dawn of Consciene" p. 275.
١٥) Junker, H. und Delaporte, L. Die voelker des Antiken orients" P. 32 (1933).
١٦) Breasted, J. H. "Ancient of Egypt" Vol. II p. 263.
١٧) Breasted, J. H. ibid, Vol. II. P. 323
١٨) Hassan, Selim, "the Creat Spbinx and its Secrets" p. 79. Ff fig 656.
١٩) Glanville J.E. Arch. Vol. XV (1929) p. 5 ff.
٢٠) Badawi, Ahmed "memphis als Zweite Landishauptstadt im Neuin Reuhe" p. 69 ff (Cairo 1948)
٢١) Meyer, Eduard "Geschichte des Altertums" Vol. II I' 324
٢٢) Breasted j. H. "Ancient Reeords of Egypt" Vol II. P. 389.
٢٣) Davies "the Rock Tombs of El-Amarna" Vol. V (1908).
٢٤) Davies, ibid Vol. IV (1908).
٢٥) Davies, ibid Vol. V (1908).
٢٦) "الحضارة المصرية" تأليف جون ويلسن وترجمة الدكتور أحمد فخري صفحة ٣٤٩.

الفهرس

اخناتون

هذا الكتاب :

يتناول سيرة شخصية دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، واستطاع أن يسجل على صفحاته اسمه مصحوباً بعبارات التبجيل والتقدير، إنه "إخناتون" أول من نادى "بالتوحيد" ولم تكن دعوته سلمية، بل اقترنت بأعمال العنف والقسوة إذ ارتطمت دعوته بعدو جبار عات هو آمون وكهنته، قبع في معبده الضخم "الكرنك" ودانت له طيبة، وسيطر على أقطار الإمبراطورية من أعالي الفرات شمالاً إلى أقاصي السودان جنوباً..

هذا هو إخناتون أول من بشر الناس بإله واحد لا شريك له وقال عنه في نشيده: "أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً".